

تم تحميل هذا الكتاب
من موقع الملفات الإسلامية
<http://islamicfiles.net>

عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْإِسْلَامِ

islamicFiles.Net



بِقَوْلِهِ
وَكُنُوزِ عِيسَى

مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله الذى خلق الإنسان من عدم ، وعلمه ما لم يعلم ،
والصلاة والسلام على سيدنا النبي الأكرم سيدنا محمد خير من
مشى على قدم ، وعلى آله وصحبه نجوم الأمم ، ومن اهتدى بهديه
إلى يوم الفوز والندم

وبعد

فقد خلق الله — عز وجل — الإنسان عبقرى الشكل والتكوين ،
كما خلق كل شىء كذلك ، ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿صُنَعَ اللَّهُ
الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ ، وقوله تبارك اسمه : ﴿يَتَأَيَّهَا الْإِنْسَنُ مَا
عَزَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ ^(٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّنَكَ فَعَدَلَكَ ^(٧) فِي
أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ^(٨) .

والعبقرية إبداع ، وقد أبدع العقاد فى عبقرياته ، عبقرية المسيح ،
ومحمد ، وعمر ، واجتهد فى بيان مفتاح الشخصية الذى هو آية
العبقرية ، والسبيل إليها ، وإن غلبت عليه التزعة الفلسفية ، واليوم
أكتب هذا الكتاب تحت عنوان (عبقرية السلوك) ، وأزعم فيه أن
العبقرية عبقرية جماعية ، وليست فقط عبقرية آحاد وأفراد ؛ لأن
العقل الجماعى هو الذى ينتج العبقرية الفردية .

وأذكر أن صالح بن كيسان أحد شيوخ عمر بن عبد العزيز وقد رآه يجتهد كي يكون مثل عمر بن الخطاب ؛ فقال له : (لن تكون) ، فقال عمر : (ولم ؟)

فقال : « لأن عمر رضي الله عنه كان يدعو إلى الحق ويجد من يعينه ، أما أنت فتدعو إلى الحق ولن تجد من يعينك » .

فالعبرى الذى يكتشف من أسرار الكون ما يعجز عنه غيره فالإنسان فى حاجة إلى من يعينه ، من بيئة صالحة للعبقرية ، من زوجة رضية بأن تكون شهيدة كما كان يقول أحد زملائنا : إن زوجة الأستاذ الجامعى بحق شهيدة ، فقد رضية أن تعيش فى كنف رجل نذر عمره للعلم والكتب ، والبحوث ، وغيرها يداعب ويلعب ويتنزه .

ومن مساعد له من معيد ، ومدرس مساعد ومدرس ، وأستاذ مساعد وعميد كلية يوفر له المناخ الصالح من أجل إعداد بحثه ، بل ومن عامل متقن عمله ، ينظف له المكان ، ويسعفه بكوب ماء بارد ، وشراب ساخن فى الشتاء ، وغير ذلك ، وهو ما يعبر عنه

بـ : « Team Work »

أى بفريق العمل ، والدليل على ذلك من الكتاب الكريم قول الله تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ﴾ .

والعبقرية من البر والتقوى ، حيث إن ثمره العقول فيما ينفع الناس ..

ومن عبقرية السلوك ما يأتى :

— أن يُعمل العالم عقله ، وأن يجتد فى اكتشاف المزيد من أسرار الكون حتى تصبح الحياة أكثر رفاهية ورخاء .

— وأن يتقن كل إنسان عمله .

— وأن يسأل من لا يعلم أهل الذكر لا أهل الدجل ، قال الله تعالى : ﴿ فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

— وأن يسكت من لم يستطع أن يقول الطيب من الكلام .

— وألا يخرج الإنسان أخاه .

— وأن يقرضه القرض الحسن إن احتاج .

— وأن يسأل عنه إن غاب .

— وأن يختار الرجل أو المرأة زوجة على الخلق والدين .

— وأن يتفرس المرء فى مخاطبه ، فالفراسة من نور الله ، قال عزيز مصر لامرأته : ﴿ أَكْرِمِي مَثْوَنَهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ .

وقالت ابنة شعيب لأبيها فى كلام الله موسى عليه السلام : ﴿ يَتَأَبَّتِ اسْتَجْرُهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَجَرْتَ الْقَوَى الْأَمِينُ ﴾ .

واختار الصديق أبو بكر عُمَرُ رضي الله عنه ليخلفه بعد موته أميراً للمؤمنين ، وكان الخير في جميع ما سبق ..

— وأن يترك المرء الحديث فيما لا علم له به وينشغل بما يعلمه ، حرصاً على الوقت ، وإنجازاً للأعمال .

— وأن يعد المرء العدة لمستقبله ، قال تعالى : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ ، وكان عليه الصلاة والسلام يدخر لأهله قوت سنة ..

— وأن نؤثر السلام على الحرب متى وجدنا إليه سبيلاً ، قال تعالى : ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ .

— وأن نوفر للعلم والعلماء الميزانية الكافية اللازمة للإبداع .

— وأن ننأى بأنفسنا عن اللغو ، وأن نلتزم الجادة ونتجنب البنيات .

— وأن نعطي لكل ذي حق حقه .

— وأن نؤثر الصلح على الخصام ، (وخيرهما الذي يبدأ بالسلام) .

— وأن نسأل الله تعالى صلاح الدين والدنيا والآخرة ، فقد كان

أكثر دعاء النبي ﷺ : « اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » ..

— وأن نعتبر ما هو آت يقين كأنه قد أتى بالفعل ، ومن ذلك

التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي ، ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ ، وغير ذلك .

وقد رأيت أن أجعله في فصلين :

الأول : العبقرية بين الحياة والموت .

والثاني : عبقرية السلوك في الإسلام .

وأسأل الله تعالى الذي بنعمته تتم الصالحات أن يجعله عملاً صالحاً خالصاً لوجهه الكريم ، وأن ينفع به كل من يطلع عليه ، إنه ولي ذلك والقادر عليه ، وهو مولانا وحسبنا ونعم الوكيل ..

أ.د/ مبروك عطية

الأستاذ بجامعة الأزهر

أدوات العبقرية المعطلة :

سألت نفسي هذا السؤال الذى قد يرد على أذهان كثير من الناس وهو : هل تتوفر لدى إنسان أدوات العبقرية لكنها معطلة ؟ أو هل تتعطل أدوات العبقرية لدى إنسان ؟ وما أهم تلك الأدوات ؟

والجواب الذى تطمئن إليه النفس : نعم ، توجد أدوات عبقرية ، وتتعطل ، وأهم تلك الأدوات العقل ، والرأى الذى هو من ثمرته ، وال حلم والفضل ، والعلم من غير شك من أدوات تلك العبقرية ..

وأدوات العبقرية تتعطل مثلما تتعطل سائر الأدوات المعروفة ، فمثلما تتعطل الأدوات المتزلية بسبب الأعطال الفنية وبسبب الصدأ ، وأسباب أخرى كذلك تتعطل أدوات العبقرية عند الإنسان ..

وأهم الأسباب التى تكون معطلة لتلك الأدوات :

١- اتباع الموروث من العادات :

أى التقليد والاتباع بدون إعمال عقل وعلم ، ترى الرجل من العلماء المعروفين ، وهو يتبع قومه فى عاداتهم وتقاليدهم ، فيفعل أفعالا منكراً إلى درجة أنك تقول : سبحان الله ، هل هذا فلان ؟!

ولا تزعم أنك تقول هذا حينما تراه يرتدى ثوب أهله فى قريته إن زارهم ، أو عاش أياماً بينهم ؛ فهذا أمر يسير ، ولا يهم أن يكون مرتدياً زى قومه أو ملابسهم ، فقد يرتديه ليرتاح فيه ، أو لأنه يريد أن يجامل أهله ، أو شىء من هذا القبيل ، لكن المأساة أن يسلك

الفصل الأول

العبقرية

بين الحياة والموت

سلوكهم ، ويتصرف تصرفهم ، ويوافقهم ، وهو يعلم أنهم على خطأ ، وقد ذكرت مرارا قول القائل من هؤلاء : إننى من بنى فلان ، أو من جهة كذا ، ونحن معروفون بكذا ، ويقولها صراحة : لا يغرنك أننى حامل الدكتوراة ، فأنا من بنى فلان ، ونحن لا نتفاهم .

لا أجدهما أعبر به عن ذلك إلا قول العوام : (قل على العلم يا رحمن يا رحيم) إذا رأيت ذلك ..

ولعلك ترى أمة من العلماء أى من حاملى شهادات العلماء يذهبون إلى العرافين ، أو يتداوى أحدهم إذا مرض بما يتداوى به أهله من قديم ، من أعشاب وغيرها قائلا : والله هى أنفع من الطب الحديث الذى قد يكون من أساتذته ، والمفارقة عجيبة ، حيث إنه لا يصف ذلك لمرضاه الذين يزورونه فى عيادته الخاصة ، وإذا شم من أحدهم أنه يتداوى بتلك الطريقة زجره ونهاه ، وأدبه ، وقال له : هذا الذى أوردك الموارد ..

فهل كان له ذلك التعليم !؟

٢ — ومن تلك الأسباب المعطلة لأدوات العبقرية الركود والميل إلى الكسل ، وإيثار الدعة والراحة على العمل والجهد ..

يدلك على ذلك ما عليه أمتنا العربية من ثروات هى أدوات رقى وفهوض ، ومع ذلك تراها مهملة ، فلا استثمار لبشر ، ولا لثروات فى الأرض ، وفى الآفاق والماء موجود ، والأراضى على ظمأ ، والمعادلة مضمونة ولكن ذلك كله متروك ، وأمر الاستيراد عندنا

أحب من الإنتاج ، وإيثار شراء الحاجة عندنا مضروب به المثل من حيث كونه خيراً من تنشئتها ، حتى رأينا أجيالاً تربت على الرغبة فى شراء الجديد دون إصلاح ما بين أيديهم من القديم ، وصرنا نرى من يقول : (ارم ...) ، (بلا وجع دماغ) .

حتى امتد ذلك إلى العلاقات الاجتماعية ، فضاق الزوجان الشابان بالإصلاح ، وآثروا الطلاق عليه ، وقالوا : (انزع هذا عن هذا يسترح هذا من هذا) .

والدين يأمر بالمعالجة والإصلاح ، وليس كل قديم يرمى ، وليست كل علاقة شأها شىء من الكدر يحكم عليها بالانقطاع ..

وقد أفاد العباقرة من المخلفات واستثمروها ، وولّدوا منها الجديد المبهر الذى غروا به الأسواق بعد أن سدوا به الحاجات ، فهناك عباقرة استعملوا من النفايات (الزباله) جديدا نافعا ، وما زلنا نحن نرمى بالممكن إصلاحه إيثارا للدعة والراحة على الإصلاح ، وإعادة ما حدث به عطب إلى أفضل حالاته ، وهكذا ..

والعلم حياته فى استذكاره ، ونحن فى الأعم الأغلب لا نستذكر العلم ، ولا نُحييه ، ولا نكلف أنفسنا عناء التحقيق الذى من ثمرته أن نقف على ضلالات موروثه من شأنها أن تؤدى إلى تخلف الفرد والأمة ، وأن ننهض بالجديد النافع الذى نستنبطه من نصوص تركها لنا الأولون ، ومن إعادة النظر فى ذلك الموروث ، فما زال لدينا خطباء يخطبون فى الناس الجمع والأعياد ، بل ويحتلون أماكن ويقضون أوقاتا

على الفضائيات في كلام فارغ ، بلا سند ، ومن ذلك قصة الرجل الذى فعل كل المنكرات ، فلما مات ذهبت امرأته إلى الصحابة ليدفنوه ؛ فأبوا ؛ فذهبت إلى رسول الله ﷺ وبما أنه رحمة للعالمين ذهب معها ، ومعه عدد قليل من الصحابة الذين أمرهم أن يصحبوه ، ولم يكن من طاعته بد ، وبعد قليل من المشى في جنازته خلع النبي ﷺ نعليه ثم مشى على أصابع قدميه ، فلما سئل قال : كنت أتخشى رعوس الملائكة الذين نزلوا من السماء من أجل تشييعه ، ومن ثم تعجب الناس ، كيف يلقي مثل هذا الرجل كل هذا التكريم ، فقال بعضهم لبعض : لا بد أن سره عند زوجته ؛ فذهبوا إليها وسألوها ، فدلتهم على السر الذى يكمن في دعاء كان يقوله ذلك الرجل في شهر رجب من كل عام ..

وهذا كلام فارغ ، لا سند له ولا أساس ، وهو يدعو إلى الدجل ، وهدم الدين بالكلية ، لأنه يقول للناس : افعلوا كل شيء منكر ، وتعالوا في شهر رجب ، وادعوا بهذا الدعاء الذى كان يدعو به ذلك الفاسق كلما جاء شهر رجب ، حتى تشيعكم الملائكة حفاوة وكرامة يوم تلقون ربكم ..

٣ — ومن تلك الأدوات التى تعطل أدوات العبقرية عدم الاهتمام بالعبقرى ، وعدم تشجيعه ، وذلك في الوقت الذى نعلن فيه صباحاً ومساءً عن حبنا وتشجيعنا ورغبتنا وتأييدنا واحتفالنا بالعباقرة الذين نوزع على بعضهم بعض الهدايا التافهة في عيد المعلم ، أو كلما جاء

توزيع جوائز الدولة ، بل إن الأعجب والأغرب أننا نريد عبقرية دون أن ننفق شيئاً ، نريد طالب علم يثبت لنا أنه عبقرى ، ولا بد أن يكون عبقرياً وهو يسكن في المقابر ، ولا يجد ما يأكله ، أو يعيش في أسرة مكونة من خمسة أفراد في حجرة واحدة في شقة من ثلاث حجرات ، في كل حجرة أسرة مثل أسرته ، وفيها حمام واحد ، ورائحتها كريهة ، والأصوات تصدر من كل حجرة تزعجه وترهقه ، وحين يذهب إلى مدرسته لا يجد أستاذاً عبقرياً ينفخ فيه من روحه ، ولا يجد مقعداً ولا يجد مكتبة ولا أدوات !!

وقد يقول له قائل : إن فلانا الذى ذاع صيته ، وصار علماً في مجاله كان يستذكر دروسه على لمبة كيروسين ، وكان يمشى كل يوم عشرة كيلومترات على قدميه ، وكان في الصباح تلميذاً ، وفي المساء نجاراً حتى وصل إلى ما وصل إليه ..

ينسى هذا القائل أن هذا الذى يتحدث عنه أخذ حظه من زمانه ، فقد كان رفاقه في هذا الزمان كلهم هكذا ، وقد أخذ رسول الله ﷺ حظه من زمانه وكذلك أخذ الصحابة رضوان الله عليهم حظهم من زمانهم ..

انتقلوا وجاهدوا على النوق والخيل ، وانتصروا لأن أعداءهم كانوا كذلك ، وليس من المعقول أن ينتصر فارس يركب جواداً على طيار يرميه من فوقه بالنار ، وكذلك التلميذ المخاطب بهذا الكلام ، تحدثه عن لمبة الكيروسين ، والكهرباء في بيته ، وقد يكون بيته

بلا كهرباء لكن رفاقه يتمتعون بها ، وليس من العدل أن تسأله التفوق على نظيره ، وما بينهما من كفاءة ..

إن أهل الرياضة يعرفون قواعد اللعب في المباريات ، من حيث العدل في الكفاءة ، فعدد الفريق (أ) هو عدد الفريق (ب) ، وتلك مباريات محترفين ، وهذه مباريات ناشئة ، أفتعرف قواعد اللعب ولا تعرف قواعد الجدل !

علينا إذاً إن أردنا عباقرة أن نهيئ لهم مناخ العبقرية ، فإن للعبقرية مناخاً إذا فسد فسدت بسببه العبقرية ، أو تعطلت أدواتها ..

وما أشد خطر هذا الإفساد الذي يكون تارة بإفساد العقل عن طريق المخدرات ونشرها ، والدعوة إليها ، ويكون تارة أخرى عن طريق مخاطبة الغريزة دون الفطرة ، وإشاعة ذلك الذي يقال فيه الفن الهابط ، الذي لا يحمل قيمة معنوية ، ولا وسيلة تنويرية ، ولا رسالة إنسانية ، وإنما هو إنفاق للوقت ، وإهدار للمال في شيء يجب به لا رغبة له في الاستقامة على الجادة ، يضيع به وفيه وقته ، ويغرى به نفسه المريضة ، ويضطرب به قلبه السقيم الذي لا يستقيم إلا على مثله ، عندئذ تتعطل أدوات العبقرية عند العباقرة ، وتسد دروبها أمام الراغبين فيها الذين يرون أن أجرهم مهما وصل إلى ذروته فلن يبلغ عشر أجر أقل فنان من هؤلاء ، الذين يلقي كل منهم ما عنده من قشور ويتولى ..

لا شك أن طالب العلم أو العبقرية عندما يسمع عن تلك الأرقام الفلكية التي يتناولها غيره ، وأنه يحصل على الفتات القليل تعطل فيه تلك الأدوات ، وبما أننا بشر ، وبما أننا نريد أن نعيش على مقومات العيش الأساسية فمننا من ييأس ، ومننا من يرضى ولكنه الرضا الذي يكون عن تسليم لواقع بغض ، يتنفس فيه الصعداء ، وتتوالى فيه زفرات الأسى والحسرة ..

والعبقرية وإن ادّعى أنها ابنة المعاناة لا تنمو مع تكسير المجداف بلغة الذين كانوا يزعمون أنهم يبحرون في بحر الحياة حينما كانت الحياة بحرًا ، قبل أن تتحول إلى محيط جارفة أمواجه ، لا تصلح فيه القوارب ، أى عندما كانت الحياة تسير بقروش معدودة ، أما وقد صارت الألوف المؤلفة لا تقضى فيها حاجة ولا تلبى منها رغبة ، فقد صارت محيطا جارفة أمواجه ، لا تصلح فيه تلك القوارب الصغيرة أن تسير على نسمة الليل الهادئة حتى تصل مع تباشير الصباح إلى شاطئ هادئ ، وركن جميل تحت شجرة صفصاف ، أو تحت شجرة توت ، والنفس راضية والقلب سعيد ..

عد إلى هذا الزمن حيث كان كل شيء ميسرًا ، ويستطيع المار في الشوارع أن يجد شقة يسكنها تعلق على الجدار الذي هي فيه لوحة تقول : شقة للإيجار ، واليوم ما زالت هذه اللوحة قائمة وخطها أوضح لكن الثمن عال كبير ، فمن أين يحصل شاب على مثل هذه الشقة ، وراتبه أقل من إيجار شهر واحد ، فضلاً عما يحتاج إليه من

مقومات العيش ، والعبقرية الجامدة في العقول لا تقفز فجأة لتتحول إلى جنيهاً أو دولارات ، بل أمامها دهر طويل لكي تنبت ، فما أشبهها بفسيل النخل الذي تزرعه اليوم ، لتأكل منه ثمرة بعد عشرين سنة ، عندها يموت غارسها ، وتبقى من بعده عملاً صالحاً يأكل منه غيره ، فهل تظن أن ذلك العبقرى سوف ينتظر على شاطئ المحيط كل هذه المدة حتى يستطيع أن يحصل على شقة !

عندئذ ترى بعض البوادر لتلك العبقرية قد تكسرت من أول موجة ، وانصرف أهلها إلى شيء سريع يحقق لهم رغبات العيش ..

ولا أنسى منذ عشرين سنة عندما جاءني رجل كريم ومعه جريدة الأخبار ، وعلى صفحتها الثالثة (جهة اليسار) عنوان كبير ، يقول : فلانة الراقصة تصالحت مع الضرائب بدفع مليوني جنيه ، وقال : هل تدري يا أستاذنا أن هذا العنوان (لحس عقل ابنتي) ، قلت : كيف ؟ ، قال : جاءتني به ، وهى طالبة فى الثانوية العامة ، وقبل أن تناولنى إياه قالت : يا أبى ، قلت : نعم ، قالت : إني أريد أن أعمل راقصة ، فبهت وظننت أنها تمزح ، لكنها ناولتنى الجريدة ، وقالت وقد علمت أنني اطلعت على ما أرادت أن أطلع عليه : تخيل أن هذه الراقصة دفعت صلحاً للضرائب مليوني جنيه فما عسى أن يكون أجرها ، وما عسى أن أتقاضاه أنا بعد أن أخرج في الجامعة بعد طول معاناة وشقاء ، وجهد في تحصيل العلم ..

وأنا أعلم أن ابنتي لا يمكن أن تعمل راقصة لكنها سخرت بطريقة طريفة ، لا تخلو من درس ، ولا من عبرة لمن أراد أن يعتبر .. وبشيء من الإيضاح أقول : لو أن مثل هذه الفتاة احتاجت إلى مبلغ عشرة آلاف جنيه ، فإن أرادت أن تحصل على هذا المبلغ عن طريق العبقرية (العلم والتوظيف) حصلت عليه بعد أعوام ، أما إذا أرادت أن تحصل عليه عن طريق الرقص حصلت عليه بعد ربع الساعة ، فأيهما تختار ؟!

لا شك أنها سوف تختار طريق العبقرية الذى هو طريق الصبر والتحمل ، وهما فى يقين المؤمنين من عزم الأمور ، قال تعالى : ﴿ وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزَمِ الْأُمُورِ ﴾ .

لكن ليس كل الناس على هذا اليقين ، وكذلك ليست هناك من ضرورة لإلجاء الناس إلى هذا الصبر المر ، وفى أيدينا سعة ، وفى جيوبنا مال ، فليس من الدين أن تمسك يدك عن ولدك لتعذبه وأنت قادر على إسعاده ، ونحن كذلك قادرون ، ولكننا نخطم الشراع ، ونكسر المجاديف ، أو أننا نريد أن تكون فتياتنا جميعهن راقصات لكننا لا نعلن ذلك صراحة ، إنما نعلنه ضمناً ، رأيت إلى هذا الرجل الذى لم يترك لزوجته مصروفاً كافياً لكي تعد له ما يشتهى من صنوف الطعام ، فلما عاد آخر النهار ووجد ما لا يشتهى زجرها ، وقال : أهذا طعام يؤكل ؟

فقالت : على قدر ما أعطيتنى !

فقال : كان عليك أن تتصرفى ..

لا شك أنه يعلم أنه لا سبيل أمامها إلى التصرف الحلال لكنه لم يصرح بالحرام ، وإن قالت له : هل كنت تود منى أن أعمل كذا ؟

قال : وهل قلت ذلك ؟

صحيح أنه ما قاله نصًّا ولا تصريحًا ، لكنه قاله ضمناً ، وهكذا نفعل بالعابرة ، نقول لهم ضمناً كسروا الأقلام ، واحرقوا الكتب ، وانزعوا المبادئ من صدوركم ، وافعلوا أى شىء من أجل أن تعيشوا ..

ونحن نعلم أننا ننفق الكثير أمام هذه السخافات ولكننا لا ننفق الكثير على العلم والعلماء ..

كنت ذات ليلة فى ندوة بمحاضرة نائية ، وكان المقرر للأساتذة الذين يقومون بإلقاء محاضرات فى مثل هذه الندوات (٣٨) ثمانية وثلاثون جنيهاً ، وقال لى مدير مركز الشباب بتلك المحافظة رداً على سؤال : هل هذه مكافأة علماء ؟ قال لى : إن الوزير أرسل إليه يسأله أن يقيم حفلاً فى ذات المركز ، ميزانيته المرسودة (١٠٠) مائة ألف جنيه ، وأنه حاول مع السادة الفنانين المشهورين فلم يرض أحد بهذا المبلغ ، فاضطر إلى إحضار فنان غير معروف ؛ لأنه رضى به ، مع بعض الإضافات الأخرى التى استطاع أن يدبرها ، قلت : وماذا فعل ؟

فقال : أبداً ، وقف على المسرح وهز طوله وصفق ، والشباب يرقصون أمامه ، ويصفقون ..

وغنى عن التعليق مثل هذا المشهد ، لكن غايته أننا ننفق بسخاء على ما لا يثمر ، ونحجم ونمسك عما يثمر ، وفى ذلك تدمير لأدوات العبقرية ، ودعوة إلى مزيد من الترف الذى لا يتناسب وظروفنا ، حيث إنه يكون ضرورة أو شبه ضرورة إذا كنا قد شقينا فى أعمال الجد التى جئنا منها الكثير ، عندها نقول : نريد شيئاً من الترفيه يكون بمثابة الاستراحة ، والترويح ..

ولا أدل من البطالة على رغبتنا فى تحطيم أدوات العبقرية ، حيث إننا بالبطالة ندمرها تدميراً ، فما فائدة أن يدرس الطلاب فى الجامعة ، وأن يقضوا أعمارهم فى تحصيل العلم ، ثم يقعدوا من بعد ذلك عاطلين ، لا تستطيع الدولة أن تستثمرهم ، ولا أهل الفضل الذين لا يفكرون إلا فى تكرار الحج والعمرة ، وتضخيم ثرواتهم على أساس من التجارة الرابحة التى ليس فيها مزيد من العبقرية .

والدليل على أن العبقرية تحطم أدواتها أن عتبة بن ربيعة كان فى عقل وحلم ورأى ، ومات على كفره يوم بدر ، وقد قال ولده أبو حذيفة رضي الله عنه حين رآه صريعاً يوم بدر للنبي صلى الله عليه وسلم : « والله يا رسول الله ما شككت فى أبى ، ولا مصرعه ولكنى كنت أعرف من أبى رأياً وحلماً وفضلاً فكنت أرجو أن يهديه ذلك للإسلام ، فلما رأيت

ما أصابه ، وذكرت ما مات عليه من الكفر بعد الذى كنت أرجو له
أحزنى ذلك ، فدعا له رسول الله ﷺ وقال له خيرًا » .

(السيرة النبوية لابن كثير ٩٣٣/٥) .

فمعنى ذلك أن أباه قد توفرت لديه أدوات العبقرية من الرأى
والحلم والفضل ، فقد كان رجلاً عاقلاً ، وكانت تلك الأدوات كفيلة
بأن تهديه للإسلام الذى يتوصل إليه بالعقل والرأى ، فهو دين العقل
ومبادئه التى دعا إليها الناس لا تتناقض والعقل فهو يأمر بالعدل
والإحسان وإيتاء ذى القربى ، لكن هذه الأدوات قد تعطلت ، حيث
ركن الرجل إلى ما عليه قومه ، وحال بينه وبين الوصول إلى الدين ،
تعصبه لما عليه قومه من تعصب أعمى هو مدمر لكل أدوات العبقرية ..

ولعلك تقف عند نبل ولده ، الذى ما حزن من أجل موت أبيه ،
وإنما حزن لأنه كان بوسعه أن يموت مسلماً حيث كان ذا عقل ، لكن
لما مات على كفره أحزنه ذلك ..

ومن حقنا أن نحزن على موت أمة إذا كان أبو حذيفة قد حزن
على موت فرد ..

نحزن على موت أمة على فقير وبؤس وحرمان ، ونحن نعلم أنها
قادرة على الغنى والرخاء والتقدم ، لأنها تملك أدوات ذلك ، فما
الذى يحول بينها وبينه ..

إنك لا تحزن إن وجدت قعيداً عاجزاً ، وإنما تحزن إن وجدت
صحيحاً قادراً على الكسب لكنه يميل إلى النوم والدعة ، يستخف بك ،

ومن قبل قد استخف بنفسه ، وأهدر قيمة وجوده ، وقيمة الدين
الذى قال له : ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ﴾ .

وقد قال عليه الصلاة والسلام للصحابه : (لا يصلين أحدكم
العصر إلا فى بنى قريظة) ، فانطلقوا من جهاد إلى جهاد ، ومن عمل
إلى عمل ، فكان لهم النصر ، وما النصر إلا من عند الله ..

عبقرية الجماعة :

هل العبقرية عبقرية آحاد وأفراد أم أنها عبقرية جماعة ؟

قد يتبادر إلى ذهن القارئ أن الجواب إنما هى عبقرية أفراد ؛ إذ
لا تتصور العبقرية فى أمة بكاملها ، أو فى جماعة ، يعنى أننا لم نسمع أن
العبقرية أمة ، وإنما العبقرية فرد ، أى فلان العبقري ، وليس أمة كذا
عبقرية ..

والحق أن العبقرية جماعة قبل أن تكون أفراداً ؛ وإن تفاوتت
الدرجات ، وتباينت المظاهر ، فعبقري ذلك الرجل الذى علم
ولده ، وهو مؤمن بأن العلم نور ، ويبدل فى سبيل تعليم ولده الغالى
والنفيس ..

وعبقرية تلك المرأة الأمية ، التى حملت فوق رأسها الخضر
والفواكه ، وتمسح شوارع قريتها ، تنادى : من يشتري كذا ،
أو تقعد أمام منزلها الضعيف المتهالك لتريح دراهم معدودة ، وقروشاً

قليلة تنفقها على تربية ابنها ، أو ابنتها اليتيمين ، حتى يصلوا إلى أعلى درجات التعليم ..

بل إن هذا الرجل الذى فقهه فى الدين ، فحج حجة الإسلام ، ثم تطوع بتكاليف الحجة الثانية لطلاب العلم ، وستر العذارى الفقيرات ..

بل عبقرى ذلك العامل الذى يتقن عمله ، فيهيئ به مناخًا صالحًا لعالم ، وباحث ، وطالب علم ، ومنطلق فى طريق كى يؤدى كل من هؤلاء عمله على الوجه الأكمل ..

وعبقرى ذلك الأمين الذى يتقى الله فيما ائتمن عليه ، فهو يحفظ عهده ، ويعرف مكان كل شىء منها ، فما خان وما فرط ..

وعبقرى ذلك الموظف الذى يقضى حاجة من يقف أمامه دون أن يتعلق بأذنان اللوائح ، ويعقد الأمور ..

وعبقرى ذلك الحاكم الذى يعنى بالتعليم والصحة ، ويمكن الباحثين من إتمام بحوثهم ، ويرصد لهم المال اللازم لذلك ..

إنها عبقرية الأمة التى خاطبها ربنا — عز وجل — بقوله : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ﴾ والعبقرية نتاج تعاون ، وخلاصة أيدٍ تضافرت جميعها من أجل إنجاح فكرة ..

فذلك الفرد من الأمن فى مؤسسة علمية ، أو غير علمية عبقرى إذا كان يقظًا مرابطًا ؛ لأنه يوفر الأمن ، ويحققه لمن بداخل تلك المؤسسة كى ينتج العبقرية فى تلك المؤسسة ..

وقد رأينا النوابغ من العلماء يقولون : إن سر نجاحهم يكمن فى الـ « Team Work » ، أو فريق العمل ..

فإن كان ذلك العبقرى أستاذًا ، فإن فريق عمله يتكون من الأساتذة المساعدين ، والمدرسين المساعدين ، والمعيدى والعمال وبعض الطلاب ، وإدارة الكلية التى توفر لهم الأدوات المطلوبة ، والمناخ اللازم من أجل إتمام بحث والوصول إلى نتيجة عبقرية ..

وقد كان أصحاب الكهف أمة عبقرية ، ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ ﴾ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّىْ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۖ

وذلك لأنهم اتفقوا على الفرار بدينهم ، والأخذ بالأسباب ، حيث خرجوا ومعهم المال ، ﴿ فَأَبْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا ۖ ﴾

واللجوء إلى الكهف ، ﴿ فَأَوْدَأُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِّنْ أَمْرِكُمْ مِّرْفَقًا ۖ ﴾

والاتفاق على ترك الجھول ، والاجتهاد في المعلوم ، ﴿قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْتَغُوا أَحَدَكُمْ بَورِقَكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١١﴾ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا ۝﴾ .

وكان الأشاعرة رحمهم الله عباقرة ، حيث وصفهم رسول الله ﷺ بأنهم أرق الناس قلوبًا ؛ لأنهم كانوا إذا أرملوا (اشتدت بهم الظروف) جمعوا ما عندهم فوق بساط ، ثم قسموه بينهم بالسوية ، وهم أمة من الناس ..

وتتحقق العبقرية في الأمة إذا فهمت قول رسول الله ﷺ : « مثل المؤمنين في توادهم وتعارفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر » ..

ومنتهى العبقرية أن تكون الأمة مهما بلغ عدد أفرادها فردًا واحدًا ، وتلك عبقرية المشاعر التي تنبى عليها عبقرية العقول ؛ فإننى أرى أن عبقرية المشاعر أساس لعبقرية العقول والإبداع ..

ألا ترى أن الإحساس إذا صح صح الفكر ، وأن العاقل إذا فكر في منحى من مناحى الإبداع إنما يدفعه إليه شعوره بحاجة الناس إليه ، فلولا حبه الخير لهم ما أعمل عقله ..

العقل الجماعى :

والعقل مناط العبقرية ، ومصدرها الأول من غير شك ، والعقل الجماعى معتبر في هذا الدين ، فالتكليف جماعى ، والصلاة المفصلة هى صلاة الجماعة ، والحج عمل جماعى ، ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ .

والقرآن الكريم يخاطب الجماعة ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ ، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ ، ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ ، ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ ، ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ، ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ، ﴿لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ .

وهناك بلا شك الخطاب الخاص ، لقول الله تعالى : ﴿لَعَلَّمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ ، وقوله تبارك اسمه : ﴿إِنَّمَا تَحْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ .

فالتفاوت وارد بين البشر ، لكن يبقى للعقل الجماعى أثره في العبقرية ، التي قد تنتج فردًا يضىء الطريق أمام أمة ..

وقد طالعنا كتب التراجم والتاريخ والسير ، ووجدنا ما يسميه الباحثون أثر النشأة في حياة العلماء العباقرة ، بل أثر الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية في حياة الناشئة الذين صاروا علماء مبرزين وعباقرة مشهورين ..

فهذا رباه أبوه منذ نعومة أظفاره ، والإمام الشافعي حملته أمه إلى الإمام مالك ، والليث بن سعد فقيه مصر كان يرسل بالنفقات إلى الإمام مالك بالمدينة المنورة ، وكان ينفق على طلاب العلم ، وكان الطلاب يلزمون الأساتذة ..

والعقل الجماعي يشمل المرأة والطفل ، ألا ترى إلى إشادة الكتاب العزيز بامرأة عمران ، ومريم ، وامرأة فرعون ، وبلقيس ، وأخت موسى التي بصرت به عن جنب وهم لا يشعرون ..

وفي أمة الرحمة المهداة سيدنا محمد ﷺ وجدنا صحابيات جليلات عرفن بالجهاد ، والفضل ، من أمثال أم المؤمنين خديجة رضى الله عنها ، وأسماء بنت الصديق التي قادت نطاقها نصفين ، انتطقت بنصف ، وربطت زاد النبي ﷺ وأبيها بالنصف الآخر ، وقد واست أم المؤمنين خديجة رضى الله عنها رسول الله ﷺ بما لها ، وكان بيتها بيت الدعوة إلى الله — عز وجل — ، والله — عز وجل — يقول في يحى العلي : ﴿وَأَتَيْنَهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ ، ويقول في يوسف السبط : ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ ، ويقول في سليمان العلي : ﴿فَفَهَّمْنَهَا سُلَيْمَانَ﴾ .

ومن قتل روح العبقرية في الأمة أن نجب عنها المرأة والطفل ، وغيرهما من الذين هون من شأنهم ، وقد تكون الحكمة في قلوبهم ، والخير في آرائهم ، ونحن أمة الأصل فيها أن تنشد الحكمة ، أينما وجدتها كانت أحق بها ..

وقد روى خدام رسول الله ﷺ عنه الأحاديث ، ما كانوا مجرد خدم جل أعمالهم تنظيف البيوت ، وإعداد الطعام ، وتجهيز الدواب ، وإنما أتيح لهم فرصة الكلام من سؤال ، وجواب ، وإبداء رأى ، ومن ثم نهضت الأمة ، وفتحت بالنور والعقل والحكمة بلاد الله ، وارتقت ارتقاء عظيمًا في شتى المجالات دون تعصب ، ودون قتال ، فلم ينتشر الإسلام بالسيف ، وإنما انتشر كما قال الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة ، قال الله — عز وجل — : ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ ، وقد كان رسول الله ﷺ أرحم الناس ، وأجود الناس ، وأكرم الناس ، وكان أكرم ما يكون في رمضان ..

وقد سأله بعض الناس أن يمهل مدة من الزمن كي يفكر في الدخول في الإسلام ، فأمهله أكثر من المدة التي سأله إياها ..

وقد قال عليه الصلاة والسلام : « ما دعوت أحدًا إلى الإسلام إلا كانت له كبوة ، إلا ما كان من أبي بكر ، ما عكم حين دعوته إليه » ..

وهذه العبارة وإن كانت مدحا للصديق ﷺ إلا أنها ليست ذمًا لغيره ؛ فلا إكراه في الدين ..

وإذا فهمنا أن العبقرية جماعية ، وأدركنا أن الجميع فيها شركاء ، وأن على كل فرد أن يؤدي ما عليه تجاهها ، فإن أدى كل فرد

ما عليه تجاهها أورقت ، وأنبئت من كل زوج كريم ، فإذا الحياة كما أرادها الله — عز وجل — جميلة وارفّة الظلال ..

لأن العبقريّة الجماعية هي التي تحقق هذا المعنى ، فإن الفرد مهما بلغت درجة عبقريته لن يزرع الأرض الشاسعة وحده ، ولن يسوّق محاصيلها وحده ، ولن يبني العمارات الشاهقة وحده ، ولن يحرك المركبات الكثيرة ثقلها وخفيفها وحده ، ولن يتخصص في كل فروع الطب ، والهندسة والميكانيكا وسائر العلوم ..

ولن يوهب العبقريّة في الرسوم والألوان ، والعروض والقوافي ، ونظم العلوم ، والإبداع الشعري ، والنثر ، والأجناس الأدبية المختلفة ، والعلوم الاجتماعية ، والطهي وإدارة الأعمال ، كل ذلك يحتاج إلى عبقرية أمة ..

وقد كنا ندرس هذا المعنى للأطفال ، فنقول لهم : إن رغيف الخبز الذي تأكله اشترك فيه عدد كثير من الناس حتى وصل إليك ، فالفلاح زرع القمح وحصده ، وعمال الطحين طحنوه ، والخبازين خبزوه ، والباعة تناولوه حتى وصل إلى يدك ، ومن ثم إلى فمك ..

وبمثل هذا أقول في العبقريّة الجماعية ، التي هي خلاصة أيد فتيّة ، وعقول مستنيرة ، ونفوس سوية ، ترى أن الحياة رسالة بناء ، وجمال وازدهار ..

وأن الأنانية البغيضة محطمة للعبقريّة ، وأن كدر النفوس معطل لحركتها في العقول والوجدان ، فقد هي النبي ﷺ عن أن يبلغه أحدٌ

شيئاً في أصحابه ، قائلاً : (فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر) ..

فانظر كيف هي عن إبلاغه شيئاً سيئاً في أصحابه ، وعلل لذلك بأنه يحب أن يخرج إليهم وهو سليم الصدر ، فالكلمة السيئة مما يعكر صفاء الصدر ، والصدر إذا سلم كان مؤهلاً لأداء ما عليه من رسالة العبقريّة ، وإن تكدر لم ير موضع قدميه ، ومن لم ير موضع قدميه عجز أن يرى آيات العبقريّة في الأفق البعيد ..

عبقرية السلوك :

وخيرهما الذى يبدأ بالسلام ..

ما زلت أذكر قول ذلك الرجل الذى لم تمكنه الظروف من إكمال تعليمه حيث كان يقول : إن التعليم أكبر خدعة ، وأنه وبال على صاحبه ، وأن الذى أكمل تعليمه لم يجن منه خيرًا ، فماذا يتقاضى خريج الجامعة ؟ وكيف ينفقه على أوجه الحياة المختلفة ، وكل وجه من أوجهها غول ووحش كاسر ، إن راتبه الذى يتقاضاه لو كان خريج جامعة لا يكفيه مصروف يوم واحد ..

هذا منطقه الذى رآه حسنًا وصدقًا ، ورآه عين الصواب ، وهكذا يقول من رأى خيرية الذى يبدأ بالسلام لا تتحقق بحال ، إنما تتحقق بالإعراض ، فكما يرى الذى لم يتعلم أن لا خير فى التعليم كذلك يرى المخاصم أنه إذا بدأ بالسلام كان ضعيفًا ، وقيل فيه كذا وكذا ، وهو رجل أنف ، يأنف أنفه أن يكون منكسرًا ، وجبينه أن يكون منحنيًا ، إنما الخير أن يعرض ، وأن يزداد إعراضًا ، حتى يقال فيه إنه رجل ، وأنه لا يضع (واطيًا) أبدًا ..

وقد قال النبي ﷺ فى المتخاصمين : « يعرض هذا ويعرض هذا وخيرهما الذى يبدأ بالسلام » ..

والنبي الكريم ﷺ لا ينطق إلا عن عبقرية ، ولا يحكم بغيرها ، فنور النبوة من نور الله — عز وجل — ، والعبقرى بحق من لم يحكم هواه ،

الفصل الثانى

عبقرية السلوك فى الإسلام

وإنما يحقق الموضوعية التي يرتضيها دينه ؛ لأن دينه لا ينطق إلا بالحق ، ولا يعرف سواه ، ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ ، وطاعة رسول الله ﷺ من طاعة الله — عز وجل — ، قال تعالى : ﴿ مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ ، وقال في رسوله الكريم : ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴾ .

فها هو ذا الحق الصراح ينطق بأن خير المتخاصمين هو الذي يبدأ بالسلام ..

فنحن أمام خيار من اثنين ؛ إما الإعراض والتولى ، وإما البدء بالسلام ، والاختيار الثاني هو اختيار الدين ؛ لقوله عليه الصلاة والسلام : (وخيرهما الذي يبدأ بالسلام) .

صحيح أن الذي يبدأ بالسلام يعرض لمثل هذه الفلسفات ، والأقوال الشائعة ، والكلمات الموروثة التي تفيد بأن الذي يجنح للسلام ضعيف ، فضلاً عن الذي يبدأ بالسلام ، وأنه سوف يتعرض للوم اللاتمين وهو سخافة لا يرقى إلى مستوى اللوم المعبر ، وقد يتعرض لضغوط داخلية من نفسه قبل غيره ؛ فإن نفسه أماراة بالسوء ، ﴿ وَمَا أَطْرَأُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ﴾ ، ﴿ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

وقد حدث شيء مما يحدث بين الناس بين الحسن ومحمد ابني علي ابن أبي طالب رضي الله عنهما ، فكتب محمد بن الحنفية رسالة إلى أخيه الحسن يقول له فيها : إنه لا مفاضلة بينهما من جهة الأب ؛ فأبوهما

علي رضي الله عنه ، وإنما المفاضلة بينهما من جهة الأم ، فالحسن ابن فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ ، ومحمد ابن الحنفية ، قال له : إنك خير مني من جهة الأم ؛ فإن أمك تعدل وزن الأرض من أمي ، وقد قال رسول الله ﷺ : (خيرهما الذي يبدأ بالسلام) ، وما معنى أن أبدأك بالسلام إلا هذا ، فلا أحب أن أكون خيراً منك ، حيث إنك خير مني ، فأبدأ أخاك بالسلام حتى تكون أبداً خيراً منه ، فذهب إليه الحسن ، وصالحه ..

إنها الكلمات التي تدل على عبقرية السلوك لأنها بمثابة الندى الذي تتساقط قطراته على وجه الزهر ، فتحييها ، وتكسيها جمالاً ، وتجعل من الصبح آية إذا نظرت إليها

وكم من كلمة كانت مثل الندى الذي يواسي الجراح ، وكم من كلمة أشبه ما تكون بالنار التي تجرح ، وتزيد الجرح اشتعلاً ، وكم من عبقري في السلوك عند الصلح تنزل منه الكلمات نزول الندى على وجه الزهر ، فإذا بكل سواد ينكشف ، وإذا بكل المشكلات تتضاءل وتتلاشى ، ويحل الوئام محل الخصام ..

وهناك من يسعى إلى الصلح لكنه لا يرفق فيه بسبب كلمة غبية ، تجدد المآسى وتزيدها ، فإذا بالخصام يزداد ، وإذا بمسافات البعاد تتسع ، فلا ترى آخر الأمر إلا خسارة ..

ونحن إذا تدبرنا آيات الكتاب العزيز ، ووقفنا عند قول الله تعالى
 ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ
 الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَذِبِينَ﴾ .

فانظر كيف قدم ربنا تعالى العفو قبل العتاب ، على عكس ما ترى
 من قول المعاتبين الذين يستهلون عتابهم بتجريم من يعاتبون ، وتخطئته
 وإلقاء التهم عليه ، بحيث لا يظن أنهم سوف يعفون عنه أبداً ، فيضيق
 صدره ، ولا ينطق لسانه بالحسنى ..

وما أكثر هؤلاء الذين نراهم يقولون : ابتعد عني ، أنا مخطئ إذ
 صادقتك ، أنا مذنب إذ صاهرتك ، كان يوم تعرفى عليك أسوأ يوم
 في حياتي ، أو يقول والد لولده الذى أخطأ : لأقطعن رقبتك ، وغير
 ذلك من الكلمات التى تدل على أنه لا أمل فى عفو ولا رجاء فى
 تسامح ، ثم يكون من بعد ذلك عفو وتسامح ، ولكن كما يقولون :
 بعد أن يجف الريق ، ويضيع الأمل ، وتختفى كل بارقة من أفقه
 الرقيب ..

ولو تأسى الناس بكتاب الله — عز وجل — الذى لا يأتيه الباطل
 من بين يديه ولا من خلفه لتعلموا هذا الدرس من العبقرية ..

ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿وَإِذْ أَسْرَأَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ
 حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُ وَأَعْرَضَ
 عَنْ بَعْضٍ﴾ .

إنه عدم الاستقصاء فى العتاب ، وهو آية من آيات العبقرية فى
 السلوك الاجتماعى الراقى ، فمن أراد أن ينجح اجتماعياً لم يستقص
 عند العتاب ، وإنما عاتب من يعاتبه بذكر بعض الأمور ، والإعراض
 عن بعضها ، إنه بذلك عبقرى لا يضع معاتبه فى حرج ولا فى ضيق ..

والاستقصاء فى العتاب لا يتأتى إلا من لئيم كما قال الزمخشري
 رحمه الله ، ولن تجد لئيمًا عبقريًا إلا فى السوء ، وعبقرية السوء
 ليست عبقرية ، وإنما هى وباء إن طال شره فسيطوى ذات يوم ،
 ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ
 الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ .

وهى زبد ، والزبد يذهب جفاء لا محالة ، قال الله تعالى :
 ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي
 الْأَرْضِ﴾ .

وشتان ما بين ما هو ذاهب ، وبين ما هو ماكث فى الأرض ، فهذا
 بعد حين وإن طال ، سوف يكون ذكرى وإن كان من آثارها أذى
 وسوء ، وبين ما هو باق لا يستحيل ذكرى ، وإنما هو كيان سار فى
 دماء الوجود ، وفى كل موجود ، أينما ذهب رأيتُه أو شممت منه
 رائحة حياة ، وما أطيب أن تكون الحياة مرئية ومحسوسة آية من آيات
 تلك العبقرية التى تبعث النور ، وترسل الأمل فى كل طريق ..

قيده الإسلام يا رسول الله :

خوات بن جبير صحابي جليل ، حسن الصوت ، ينشد بالليل في ركب الصبح الجليل ، فيهون على الناس وعشاء السفر ، ويحملهم ، فإذا طلع الفجر توقف ، وقال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه : (ارفع عقيرتك يا جبير) ، وذلك من أجل الصلاة ..

كان خوات في جاهليته يحب التحدث إلى النساء والجلوس إليهن ، وذات يوم وجد جماعة منهن يجلسن عند غدير ماء ، فاصطنع حيلة من أجل أن يجلس إليهن ويحدثهن ، فقال لهن : (إن لي بعيرا شاردا ، وأريد منكن أن تفتلن لي حبلا ، لآتي به) ، وجلس إليهن يتحدث إليهن ، ومر عليه النبي ﷺ فأعرض عنه وعنهن ، وعلم ﷺ بالقصة ..

فلما أسلم خوات رضي الله عنها ، داعبه النبي ﷺ فقال له : (ما فعل بعيرك الشارد يا خوات !؟) ، فقال : (قيده الإسلام يا رسول الله) ..

لم يكن هناك من بعير شارد ولا وارد ، ولكنه رسول الله ﷺ ، وإذا قال : ما فعل بعيرك الشارد ، فهناك بعير ، وإن كان من خيال خوات ، وقد كان بالفعل هناك بعير شارد في خياله كما ادعى ، لكنه قيده الإسلام ..

وكم من بعير شارد في حياة كل إنسان ، يحتاج إلى ما يقيده ، ولن يقيد الشارد من البعير إلا هذا الدين ، لن تقيده حبال الدنيا الموثقة ؛ ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ .

وليس هناك من وازع أقوى ، ولا أشد تأثيراً في النفس من وازع الدين ..

ومن أجل ذلك كانت العناية به من أولى اهتمامات أصحاب العقل المستنير ، والمنهج السديد ، وعلى الدولة والأفراد أن يهتموا بتربية الأجيال والناشئة على الوازع الديني ؛ لأنه إن استقر داخلهم فسوف نضمن حسن سلوك ، وإتقان عمل ، وفلاح ونهضة ؛ لأن من كان الدين وازعه لم يحتاج إلى رقيب ، فالله — عز وجل — رقيب عليه ، وقد ورد أن الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ..

فماذا تنتظر من إنسان يعمل والعمل عبادة على أن الله يراه ، فإن لم يكن يراه فإنه يراه ، إلا أن يكون متقناً محسناً في كل شيء ..

إن عبقرية السلوك تتمثل حقاً في اتباع ما أمر الله به ، ﴿ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِمْ أَنْ يُوصَلَ ﴾ .

ليس فقط في وصل الرحم ، وإنما في وصل كل شيء ؛ فنحن نعلم أن الوصل نقيض القطع ، وقد جاء ذلك صراحة في آية البقرة ، حيث يقول الله تعالى : ﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِمْ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴾ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِمْ أَنْ يُوصَلَ .

وبناء على ذلك أقول : إن الإسلام دين الوصل للطيبات ، ودين القطع للخبائث ، إنه دين الوصل لعبادة مشروعة ، ومعاملة أزكى مع

النفس والناس ، وقد أمر بقطع الخبائث وسوء العادات ، والكف عن الأذى من كل وجه ، وتمثل العبقرية في تلك العبارة الذكية الزكية ، التي كانت بادرة خير تدل على توفيق عظيم ، فما قال للنبي ﷺ : أى بعير ؟ ليس لى بعير شارد ... ، أو كما نقول نحن : (ياه ... أما زلت تذكر ... إنها من نسج الخيال ، أو كانت مزحة) ونحو ذلك ، وإنما قال : (قيده الإسلام) ، فما عاد لى من بعير شارد ، ولا غيره ، وإنما هدانى الله — عز وجل — ، وما عدت إلى تلك الجاهلية وعاداتها السيئة ، وهذا من أثر الإسلام فى الناس ..

وأنا أقول : لا بد أن يكون للإسلام أثره فى سلوك الناس ، من حسن طبع تطبع عليه من أثر الدين ، وإن لم يكن كذلك قبله ، ومن أمر بمعروف ونهى عن منكر ، ومن شمائل تشهد للمرء بأنه حسن إسلامه ..

ولا بد للتوبة من أثر على الإنسان ، يتجلى فى عدم العودة إلى الذنب أبداً ، وتلك هى التوبة النصوح ، قال الله تعالى : ﴿يَتَابِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ .

ولا بد للعلم من أثر على المتعلمين ، يتجلى فى أن تراهم على قمة عالية تتناسب والعلم الذى تعلموه ، فهم لا يعرفون الدنية ، ولا يعرفون الدناءة ..

وقد روى البخارى فى صحيحه أن مالاً أهدى إلى النبي ﷺ فأعطاه عمر بن الخطاب ﷺ ، فقال عمر : (يا رسول الله ، أعطه من هو

أفقر منى) ، ما قال عمر ﷺ : إننى يا رسول الله لست فقيراً ، وإنما قال بأدب الإسلام ، وعبقرية السلوك : (أعطه يا رسول الله من هو أفقر منى) ؛ فقال عليه الصلاة والسلام : (يا عمر ، إن هذا المال حلوة خضرة ، فإن جاءك منه شىء لم تسأله ولم تشرف إليه نفسك فخذ ، وتموله يبارك لك فيه) ..

ومن عبقرية السلوك جواب من سئل كالعباس ﷺ : أنت أكبر أم رسول الله ؟ فأجاب بعبقرية السلوك قائلاً : (رسول الله ﷺ أكبر منى ، بيد أنى ولدت قبله) .

وكما كان من أبى بكر ﷺ ، وقد سأله من عرفه ، ولم يكن يعرف رسول الله ﷺ فقال : (من هذا ؟) فقال ﷺ : (هاد يهدينى على الطريق) .

فيفهم منها السائل أنه دليل طريق للصديق ، وهو ﷺ يدلّه على طريق الوصول إلى رضوان رب العالمين ، إنها عبقرية السلوك التى توغلت فى دماء الناس ، فإذا بها فطرة ، أو كأنها فطرة فطروا عليها من غير شك ..

وهذا يجعلنى أقول : إنه ليس بمستغرب أن يكون الحب سبباً فى تلك العبقرية ، ألا ترى إلى قول الله تعالى : ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ .

فجعل الله — عز وجل — برهان حبه اتباع رسوله ﷺ ، وهل اتباع رسول الله إلا دليل عبقرية ، بعكس اتباع أى أحد ؛ فإنه قد يكون وبالا على التابع والمتبوع ..

أما اتباع رسول الله ﷺ فهو عين العبقرية لأنه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويدعو إلى أطيب حياة ، وأزكى سلوك ، ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ۚ فَادْكُرُونِي أذكُرْكُمْ وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ۚ ﴾

وسكتت أسماء :

كانت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما زوجة الزبير بن العوام رضي الله عنه ، وكان رجلاً فقيراً ، فكانت تسوس فرسه ، وتحمل علفه على رأسها في شدة الحر ، حتى أرسل إليها أبوها من يكفيها سياسته ، وقالت : (فكأنما أعتقني) ..

و ذات يوم وهي تحمل علف الفرس فوق رأسها مر بها النبي ﷺ وكان اليوم شديد الحرارة ؛ فعرفها ، فأناخ ناقته ، وقال لها : (اركبي) ، تقول رضي الله عنها : (وكان الزبير رجلاً غيوراً ؛ فتذكرت غيرته ، وذكرته أنه رسول الله ﷺ فلم أستطع أن أقول : لا ، فسكت ، فعرف مني ذلك ﷺ فمضى وتركني) ..

سكتت رضي الله عنها ، وكان سكوتها عبقرية سلوك منها ..

وكان من عبقرية سلوكه ﷺ أن مضى ولم يخرجها ، وما أكثر الذين يخرجون أنفسهم في مواقف كثيرة ، لا تسفر في النهاية إلا عن سوء علاقة بين الناس ، وفساد كبير ..

يقول رجل في مثل هذا الموقف : ألم تسمعي ؟ قلت لك اركبي ، فإن سكتت أعاد السؤال ، وهكذا ، فإن قالت : إني تذكرت غيرة زوجي قال في زوجها قصيدة هجاء ، أو قال : يغار من كل الناس إلا مني ، أو قال : عيني في عينك ، أو : يغار المأسوف على شبابه ، إنه لا يغار ولا يحزنون ، أنت التي لا تريدين أن تركبي معي (عنك ما ركبت) ، ثم ينطلق لاويًا عنقه حاكياً ما حدث لطوب الأرض ، وهكذا ، وتكون غصبة ، ولو تركها ومضى دون تعليق لكان أسلم له ولها وللدنيا من حولهما ..

والسكوت في كثير من الأحيان أبلغ من الكلام ، لكن لا يدركه إلا من كان عبقرى السلوك ، الذي يعرف متى يتكلم ، ومتى يسكت ؟ فلا يسكت عندما يجب الكلام ، ولا يتكلم عندما يجب السكوت ، فليس من العبقرية أن تتكلم في موضع يجب فيه السكوت أو يحسن ، وليس منها أن تسكت في موضع يجب فيه الكلام أو يحسن ..

ألا ترى إلى قول النبي ﷺ : (ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت) ..

وظل طوال الليل واقفا واللبن في كفه :

اعتاد كل يوم أن يمر على والديه باللبن قبل أن يذهب به إلى أولاده ، وشغله شاغل ذات يوم ، فتأخر عن مواعده ، ثم ذهب إليهما ؛ فوجدهما نائمين ، فتفكر ؛ إن ذهب إلى أولاده ثم عاد إليهما فلعلهما يصحوان ، ولا يجدانه ، فيغضبان ، وإن أيقظهما ليسقيهما اللبن ، ثم يذهب إلى أولاده فلربما أرهقهما ، ومن أجل ألا يغضبهما ، وألا يرهقهما لم يكن أمامه إلا أن يقف واللبن في كفه حتى يصحوا على راحتهم ، فيشربا .

وكان الليلة كانت مباركة ؛ فقد ظل الوالدان نائمين حتى طلع النهار ، ثم قاما براحتهم ، ووجداه قائماً ، واللبن على كفه فشربا .

وكان من نتيجة هذا الموقف أن استجاب الله — عز وجل — توسله ؛ إذ توسل هو وزميلاه اللذان كانا معه في الغار بصالح الأعمال حتى يفرج الله عنهم ، فقد ألقت الريح بصخرة سدت عليهم باب الغار ، فلم يكن لها من دون الله كاشفة ، وقد فرج الله — عز وجل — ، وانكشفت ، وخرج الثلاثة إلى سبيلهم آمنين ..

إن التفكير يهdy إلى عبقرية السلوك من غير شك ، ولولاه ما كان هنالك من عبقرية في السلوك ولا غيرها ، ومن ثم قال الله — عز وجل — : ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ .

ونحن إذا تفكرنا في هذا المثل القرآني العظيم خلصنا إلى بيان قيمة القرآن الكريم ، وأثره على الجماد ، فما بالك بالإنسان ، الذي يجد في نفسه حرجاً إذا شعر بتفوق غيره عليه في شيء ، كما كان من ابن آدم عندما قتل أخاه ، وعجز عن أن يوارى سواته ، فلما رأى الغراب يبحث في الأرض قال : يا ويلتي أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سواة أخي ، قال الله تعالى : ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِي سَوَاءَ أَخِيهِ قَالَ يَوَيْلَیْ أَعْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُورِيَ سَوَاءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ .

فتأمل قوله — عز وجل — : ﴿قَالَ يَوَيْلَیْ أَعْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُورِيَ سَوَاءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ . وتوقف عند قوله تعالى : ﴿أَعْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُورِيَ سَوَاءَ أَخِي﴾ ، لتجد أن هذا المقال صالح هنا بأن يقال : يا ويلتي أعجزت أن أكون مثل جبل ، فأتصدع وأخشع من خشية الله !

أويسعر الجبل الجامد بكلام الله — عز وجل — ، ولا أشعر أنا ! ، وأنا من ميزه الله تعالى بالقلب والإحساس ، وفضله على كثير ممن خلق تفضيلاً ، ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ .

وإذا استقر هذا الشعور عند العبد المكلف فلا شك أنه سوف يقيم للكتاب الكريم وزنه ، ويعرف له قدره ، ويتدبر معانيه ، ويتوقف عند أوامره ونواهيه ، ويتخلق بخلق الله ، كما كان خلق رسول الله ﷺ القرآن ..

ومعنى أن خلقه القرآن أن القرآن الكريم ما ورد فيه من أمر إلا كان عليه الصلاة والسلام أول من يفعله ، وما ورد فيه من نهي إلا كان عليه الصلاة والسلام أول من ينتهى عنه ، وقد قال ﷺ : (إني أتقاكم لله تعالى وأخشاكم له) ..

ولا تتحقق التقوى ولا الخشوع إلا إذا كان القرآن الكريم منهج المسلم ، وحاديه فى سلوكه وجميع تصرفاته ..

والقرآن الكريم يدعو إلى إيقاظ الشعور ، وكم من مثل ضربه فى هذا السياق ، ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا أَنُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ .

والإنسان السوى — والمكلف لا يكون إلا سويًا — ينفر وتشمئز نفسه من أن يأكل لحم أخيه ميتا ؛ ولذا قال الله تعالى : ﴿ فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ ، وإذا كره العبد تلك المسألة كره اغتياب إخوانه ؛ لأنه يستحضر تلك الصورة المضروبة فيها وهى أنه يأكل لحم أخيه ميتًا ..

وكذلك هنا ، من ذا الذى لا يجب أن يكون أنبل من الجماد ، وأشد تأثرًا بالمعاني التى من أجله أنزلها الله — عز وجل — .

قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ كَتَبْنَا أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ .

التوطئة قبل النصح :

من عبقرية السلوك التوطئة قبل النصح ، قال الله — عز وجل — : ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَنُ لَبْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَبْنِى لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ .

وتكرر منه لفظة (يا بنى) ، اقرأ قول الله تعالى : ﴿ يَبْنِى إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ ﴾ و ﴿ يَبْنِى أَقِمِ الصَّلَاةَ وَآمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ .

وإلى قول إبراهيم عليه السلام : ﴿ يَتَأْتِى لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴾ يَتَأْتِى إِنْى قَدْ جَاءَنِى مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِى أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴾ .

وهكذا ظل يقول : (يا أبت .. يا أبت .. يا أبت) ..

وهذا من عبقرية السلوك حيث إن التوطئة قبل النصح والخطاب تجعل النفس مقبلة على الحوار والخطاب غير نافرة ، أو مشمئزة منه ..

بخلاف الذى يدخل فى الحوار مباشرة دون تلك التوطئة ، فهو يهجم على النفس هجومًا ، فيروّعها ، وفى الترتيل يقول الله تعالى :

﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ﴾ و ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ و ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾
و ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ﴾ و ﴿يَتَأْهَلُ الْكِتَابُ﴾ .

والتأسى بالقرآن الكريم تأسُّ بعلياً الأساليب الفصيحة ، وتلك من
عبقريته .

عرض الأمر الذى لا بد منه ..

وفي الكتاب العزيز نجد قول إبراهيم لولده إسماعيل عليهما السلام :
﴿يَبْنِيْٓ إِنِّيۤ أَرَىۤ فِي الْمَنَامِ أَنِّيۤ أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىۤ ۚ قَالَ
يَتَأْتِبِ أَفْعَلٌ مَّا تَوَمَّرُۙ سَتَجِدُنِيۡٓ إِن شَاءَ ٱللَّهُ مِنَ الصَّٰبِرِيۡنَ ۚ﴾ .

ولا شك أن رؤيا الأنبياء حق ؛ لأنها وحى ، أى أنها ليست من
أضغاث الأحلام ، وإبراهيم عليه السلام مصدق رؤياه بلا شك ، وفاعل
ما أمر الله به فما قيمة قوله : (فانظر ماذا ترى) ؟

قال المفسرون فى ذلك : (عرض عليه الأمر ليكون بمثابة التمهيد
والتوطئة ؛ فلا يفاجئه بذلك الذى قد عزم عليه ، وليختبر إيمانه ،
وليسعد به ، وهو على يقين أن ولده لا يمكن أن يعصيه فى أمر الله) ..

إنه العرض الذى اختفى من حياتنا أو كاد ، حيث الناس على
المفاجأة ، والدخول فى الموضوع مباشرة دون عرض أو توطئة فكان ما
كان من نفور ، وكان ما كان من سامة وملل فى الحوار نتيجة ذلك ،
فليس من عبقرية السلوك فى الخطاب ..

وإذا حدثت تلك السامة من الحوار فلا أمل فى الاستجابة :

كان النبي ﷺ يتخولنا بالموعظة خشية السامة ..

ثبت عن النبي ﷺ أنه كان يتخول أصحابه بالموعظة خشية السامة ،
وهذا التخول ، أى الموعظة بين الحين والحين من عبقرية السلوك ؛
للهدف الذى كان من أجله وهو خشية السامة عليهم ..

وأنا أقول أنه ﷺ ما كان يسرد الكلام كسردينا ، وإنما كان يقول
القول الفصل الجزل الذى يحفظه جميع من سمعه ، كما قالت عائشة
— رضى الله عنها — ، وكان أفصح الناس ، وأرفق الناس ، وأطيب
الناس ربحاً ولفظاً ، ومعنى ، ومع ذلك كان يتخول أصحابه بالموعظة ،
فهو لا يعظهم ليل نهار ، وفى كل وقت ، وفى كل حين ، وإنما بين
الحين والحين ..

فإن سأل سائل : وماذا كان النبي ﷺ يفعل بين الموعظة والموعظة ،
فالجواب أنه كان يعايشهم ويؤاكلهم ويزورهم ، ويصلهم ، ويعطى
محرومهم ، ويتألف قلوبهم ، ويعمل بيديه ، وهكذا ، جاءه أنس بن
مالك عليه السلام بأخ له وليد ، ليحنكه ، ويدعو له بالبركة ، وكان عليه
الصلاة والسلام يعالج جملاً له بيديه ، فلما رأى أنساً حاملاً أخاه
سأله : (هل معه من تمر ؟) ، فقال : (نعم) ، فترك العمل فى الجمل
وحنكه ودعا له ، ثم عاد إلى عمله ﷺ .

فمن عبقرية السلوك أن تحرص على ألا يسأم منك الناس لا بكثرة
المواعظ ، ولا بأن تكون فظاً غليظ القلب ، قال تعالى : ﴿فَإِمَّا

رَحْمَةً مِّنَ اللَّهِ لَئِنْ لَّهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ .

الوصول إلى الغايات من أقصر طريق :

من عبقرية السلوك في هذا الدين الوصول إلى الغايات من أقصر طريق ، ألا ترى إلى قول الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ .

جملتان في حوار مع من آتاه الله الملك ، وحواره ليس كأى حوار ، الأولى (ربى الذى يحيى ويميت) ، فلما قال : أنا أحيى وأميت ما قال له : إن إحياءك ليس كإحياء الله وإماتتك ليست كإماتته ، إنما تقدم أنت سبباً من أسباب الحياة ، أما الله — عز وجل — فهو يحيى من عدم ، ويحيى الأرض بعد موتها ، ويحيى العظام وهى رميم إلى آخر ذلك ..

وإنما ناوله الثانية التى لا يجد لها ردًا ، حيث قال له : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ﴾ .

إنه لا يستطيع أن يقول : (أنا آتى بالشمس من المغرب) كما قال : (أنا أحيى وأميت) ومن ثم بهت وقد تحققت الغاية من أقصر طريق ..

وقد ترك النبى ﷺ إحدى أمهات المؤمنين تسبح من بعد صلاة الفجر إلى أن عاد إليها وقد طلعت الشمس ، فسألها : (أما زلت تسبحين ؟) ، قالت : (نعم) ، فقال لها : لقد قلت كلمات هى خير مما قلت : (سبحان الله وبحمده ، عدد خلقه ، ومداد كلماته ، وزنة عرشه ، ورضاء نفسه) ..

ولله در من قال : من دعا الله بـ (يا الله) فقد دعاه بجميع أسمائه الحسنى ..

أن ترد الماء بماء أكيس :

من قديم قال الناس : (أن ترد الماء بماء أكيس) ، أى من الكياسة والذكاء والعبقرية أن ترد الماء ومعه ماء ، أى لا تعتمد على ماء الطريق ، فقد يخدعك اعتمادك عليه ، فلا تجده ، فإذا بك تندم على أنك لم تأت معك بماء ، والقضية ليست قضية ماء للشرب ، وإنما هى قضية ماء الحياة برمتها ، أن تعتمد على غيرك فى شىء ، فإذا غيرك ليس عنده ما تطمع فيه ، فلو كنت عبقرياً أخذت معك ما أنت فى حاجة إليه ، وكما قال العوام من قديم : (زيادة الخير خيران) ، كذلك أقول : لا يضررك أن تأخذ معك ما أنت فى حاجة إليه ، وإنما يضررك أن تهمل فى ذلك اتكالا على غيرك ..

ومن القصة على لسان الحيوان : أن طائراً أمًا وضعت أطفالها فى وكر أعلى شجرة وسط حقل ، وكانت تسعى فى البكور على رزقها ورزقهن ، وعادت ذات يوم فأخبرها صغارها بأن الفلاح صاحب

الحقل قد عزم على قطع الشجرة ، وأن عليها أن تحملهم إلى وكر جديد ، فقالت لهم : ماذا سمعتم ؟ قالوا : سمعناه يقول لولده : اسأل عمك أن يأتي غداً إلى هنا ليقطع معنا تلك الشجرة ، فقالت لهم : اطمئنوا فلن تقطع ، وفي اليوم التالي قالوا لها تلك العبارة ، وقالوا لها : إن الولد قد أبلغ أباه اعتذار عمه فسأله أن يذهب إلى خاله ، ويسأله الحضور إلى الحقل غداً ليساعدهم في قطعها ، فقالت لهم : اطمئنوا فلن تقطع ، فلما أخبروها أن الوالد قال لولده : سوف نقطعها معاً أنا وأنت غداً قالت : سوف تقطع ، فهيا بنا ، وطارت بهم إلى وطن جديد ؛ لما رأت من جد حيث لا اعتماد على أحد ..

صلاة الخوف :

من عبقرية السلوك في أحكام الشريعة الإسلامية صلاة الخوف التي تكون بحسب حالة من يصليها ، والأصل فيها قول الله — عز وجل — : ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً ۖ﴾ .

وهناك أحوال أخرى ، لا يشترط فيها استقبال القبلة ..

وقد روى السهيلي في الروض أن عبد الله بن أنيس رضي الله عنه أرسله النبي ﷺ في مهمة قتل رجل كان يجمع الناس لقتال النبي ﷺ وكان

بالطائف ، فقال : (يا رسول الله ، صفه لي) ، فقال له : (إذا رأيته أذكرك الشيطان) ، فذهب إلى الطائف ، وعرفه ، فقال ﷺ : (فخشيت أن تحدث بيني وبينه تجواله ، فتفتني صلاة العصر ؛ فصليت إيماء بعيني وأنا متجه إليه) ..

فليس من الشريعة أن تقيم الصلاة على وجه الأرض بالطريقة المعروفة فيميل عليك عدوك ويقضي عليك ، إنما تؤديها وأنت تأخذ حذر ..

الموضوعية من عبقرية السلوك :

ومن عبقرية السلوك « الموضوعية » ، التي تتجلى فيها الحقيقة ؛ فلا تعصب لرأى ولا هوى ، ولا ميل إلى عاطفة ، ولا إطناب في موضع إيجاز ..

ومن العبقرية أن تخاطب الناس على أساس أن أحدكما صاحب الحق ، والآخر ليس صاحبه ، فأنت وغيرك سواء في الفرضية حتى تثبت الحقيقة ، ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ .

ولا يشك عاقل أن المؤمنين على هدى ، وأن الكاذبين على ضلال ، لكنها الموضوعية التي هي من معالم عبقرية السلوك ..

وقد بعث النبي ﷺ مصعب بن عمير إلى المدينة المنورة يقرأ على الناس كتاب الله تعالى ويدعوهم إلى الإسلام ، وثار فيه سعد بن

معاذ رضي الله عنه ، وأمره بالانصراف عن الديار ، وترك الناس على دينهم ؛ فقال مصعب رضي الله عنه : (هلا جلست ، فتستمع فإن وجدت خيراً اتبعته ، وإن وجدت غير ذلك فشأنك) ، فقال سعد رضي الله عنه : (هذا والله هو النَّصَف) ، وجلس واستمع ، وأسلم ، وبإسلامه أسلم جميع قومه ..

وهذا من أثر العبقرية في السلوك ، ما صاح مصعب فيه ، وخطب مدافعاً عن الحق الذى يدعو إليه ..

وبمثل ذلك تتحقق المقاصد ، والغايات على نبل وثبات وهدوء ..

سلوك بادية السماوة :

حين أرسل الصديق رضي الله عنه إلى خالد بن الوليد كى ينطلق بنصف جيشه إلى إخوانه باليرموك عمرو بن العاص وشرحيل بن حسنة ، ويزيد بن أبي سفيان ، وأبي عبيدة بن الجراح — استعان خالد رضي الله عنه برجل خبير لكى يصل إلى اليرموك بالشام من أقصر طريق ، فقال له : (إن الطريق خمس ليال ، ولا ماء فيه ، فاحتاطوا لأنفسكم) ، فأمر خالد بتعطيش الإبل ، ثم بسقيها حتى تشرب الكثير ، ثم يربط أفواهاها (عكمها) وانطلق ، فلما نفذ الماء الذى حملوه على ظهورها كان يذبح البعير ، فيشربون ما به من ماء ويأكلون لحمه ، حتى وصل بسلامة الله إلى اليرموك ، وضم إخوانه تحت قيادته ، وكان النصر الذى كتبه الله للمسلمين العباقره ، الذين يفكرون في اجتياز الطريق على أمن

وسلامة ، وينضمون تحت لواء سيف سله الله على الأعداء هو خالد ابن الوليد دون منازعة أو نزاع ..

وكثير من الناس اليوم يزعم أنه ما دام في سبيل الله فلن يخزيه الله ، وأن السماء سوف تمطر عليه ماء إذا عطش ، وتزل منها مائدة إذا جاع ..

وقد كان قوم من أهل اليمن إذا حجوا سافروا بغير زاد ، وقالوا : نحن المتوكلون ، فإذا جاعوا مدوا أيديهم يسألون من معه زاد ، فأنزل الله — عز وجل — قوله : ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ﴾ .

الإسلام أو الصلح :

استحضر دائماً أمام عيني مشهد أبى معبد الخزاعى ، وكان يومئذ على شركه ، وهو يواسى رسول الله صلى الله عليه وسلم في مصاب أحد ، حيث أصاب المسلمين القرع ، قال أبو معبد : (والله لقد ساءنا ما أصاب أصحابك ، وودنا أن الله عافاك فيهم) ، وانطلق إلى جيوش المشركين الذين عزموا على أن يعودوا إلى المدينة ليقضوا على المسلمين فهائياً بعد ذلك المصاب ؛ فقال لهم : (إن محمداً قد جمع لكم من الشرق والغرب ما لا طاقة لكم به) ، وأنشدهم في ذلك شعراً ، فخافوا ورجعوا إلى مكة ..

وأقول : إن السلامة مع الناس من عبقرية السلوك التى تحقق المودة في التعايش ، وقد كان عليه الصلاة والسلام يدعو الناس إلى الإسلام ، فإن أبوا صالحهم ، ومن يطلع على كتب السير والتاريخ يجد أنه صلى الله عليه وسلم

خرج كثيرًا ، ولم يلقَ كيدًا ، أى لم يحارب وإنما صالح الناس على أن يبقوا على دينهم ، دون أن يقاتلوا المسلمين ، أو يظاهروا أعداءهم عليهم ..

أما الحرب فهي آخر شيء في هذا الدين ، الذى هو دين الحياة ، وحقن الدماء فيه من مقاصده العالية ..

إذا عز أخوك فهن :

من عبقرية السلوك أن تهون إذا عز أخوك ، وأن تلين إذا اشتد ، وليس من عبقرية السلوك أن تصيح في وجه صائح ، وأن تشتد على من اشتد من إخوانك ، وأن تبادله عنفًا بعنف ، وعنادًا بعناد ، ويميناً بيمين ، تقول : يمين على يمينك ... لن أذهب ، أو لن تذهب ، أو لن يكون هذا الشيء ، بهذه اللغة ، وهذا السلوك ساءت علاقات ، وتقطعت حبال ، وانفكت عرى ..

أما إذا كنت عبقرى السلوك فإنك تلين عند الشدة ، وتهون عند العزة ، ومن قديم قال الناس : (إذا عز أخوك فهن) ..

وفي صلح الحديبية ضرب النبي ﷺ أروع المثل في ذلك ، حيث استأذن أهل مكة قبل دخولها فجأة ، وأخبرهم ، وهو الصادق بأنه جاء معتمرًا زائرًا للبيت العتيق ، ولم يأت محاربًا ، وانتظر في مكان اسمه (الحديبية) قبل مكة ، وأبى المشركون أن يدخلوها ، وكان الصلح المعروف الذى كان ظاهره الظلم بالنسبة إلى المسلمين ، لكن لما كان مقصد النبي الكريم حقن دماء الناس وافق عليه وهو على يقين من

نصر الله وفتحته ، وافق أن يكتب اسمه واسم أبيه مكان رسول الله ، ومن عبقرية سلوكه ﷺ أنه راعى شعور على ﷺ الذى أبى أن يحوها ، فقال له : (أرني مكانها) ، فأراه مكانها فمحاها بيده حقنًا للدماء ، فإن كان يعز عليك أن يراق دم ولدك مثلاً فلا تكن غيبًا في الدفاع عنه ، وإنما كن عبقرياً فتحقن دمه ودمك والناس جميعاً ..

الأم أولى بالحضانة :

في الشريعة الإسلامية نجد أن الأم المطلقة أولى بحضانة الصغار ، وقد نص الفقهاء جميعًا على أن ذلك من أجل مصلحة الصغار ، فالأب لا طاقة له بالتعامل مع الصغير الذى يحتاج إلى رخصة ورعاية ، وتنظيف ، وصبر ممزوج برحمة ... إلى آخر ذلك ، وإنما هذا شأن الأم ، وذلك ما أودعه الله تعالى فيها ، وعلى الأب أن يسعى في تحصيل رزقها ورزق عياله ، لَا تُضَارُّ وَالِدَةُ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ .

ولا منازعة ، فإذا تزوجت المطلقة نقلت الحضانة إلى أمها ؛ لأنها (أى أمها) أم لأبناء ابنتها ، وذلك إذا كانت أمها متزوجة بجدة الأولاد لا بأجنبي ، وذلك حتى تتفرغ المطلقة التى تزوجت لزوجها ، وكذلك اشترط أن يكون زوج أمها جد أولادها ، أى يكون أباه ؛ لأنه أرحم بأحفاده ، وإلا نقلت الحضانة إلى أم المطلق ، فالكلام هنا في النساء الأمهات على هذا الترتيب من أجل أن ينمو الصغار نموًا كريمًا فيه الرحمة والرعاية والعطف ، والحنان والمودة ، وليس فيه ذلك

التشتت الكائن بسبب الحرب بالأولاد ، وما يكون من نزاع المطلقين ، ولا شك أن مراعاة تلك الأحكام تعين الصغار على أن يكونوا عابرة ، فلا تولد العبقرية في عقل ندمه بمثل هذا التزاع والشقاق ، ولا في قلب أبينا إلا أن نرهقه في زمان لعبه وصباه ، وفرحه وسعاده ، وعدم تكليفه من السماء ..

مناخ النعم الدعاء لا الحسد :

من عبقرية السلوك في هذا الدين أنك إذا كنت في مناخ النعم التي أنعم الله تعالى بها على غيرك أن تدعوه تعالى ، وأن تسأله من فضله ، لا أن تحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله ، اقرأ قول الله تعالى : ﴿ وَكَفَلَهَا زَكْرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِئُ أَنَّى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿١٠١﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٢﴾

وقد قال الله — عز وجل — في آية النساء : ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ ۚ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ ۚ وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝ ﴾

وقد ذكرت أن مناخ النعم من ركائز الدعاء في كتابي (ركائز الدعاء) ..

وأنت إذا تدبرت القرآن الكريم وجدت أن الدعاء في مناخ النعم من عبقرية السلوك لسببين :

الأول : أنه يجاب فيه الدعاء كما رأيت ..

والثاني : أن الحسد لن يذهب النعمة من عند المحسود ، ولن يضر إلا بصاحبه ..

فهمناها سليمان :

وقد جاءت قضية حكم فيها داود عليه السلام بالعدل بلا شك وفق القرائن ، حيث نفشت غنم قوم في حرث قوم ، فحكم داود عليه السلام بأن يأخذ أصحاب الزرع الغنم نظير ما أفسدته ، فقال سليمان عليه السلام وكان ابن إحدى عشرة سنة كما قال الزمخشري في الكشاف ١٠١/٢ : (يا نبي الله غير ذلك أوفق ، وحكم بأن تبقى الغنم عند أصحاب الزرع ينتفعون بألبانها ، حتى يصلح أصحابها الزرع ، ثم ترد إليهم ، وقد كان) ..

قال الله — عز وجل — : ﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ۝

وقد ذكر العلماء في توجيه ذلك أن حكم سليمان ناسخ لحكم داود ، والنسخ وارد ، وقيل : اجتهد كل منهما ، وهناك اجتهد دون اجتهد ، والقول بالنسخ بناء على أن حكمهما وحى ، والقول بالثاني بناء على أن حكمهما رأى ، ورأى سليمان من عبقرية السلوك ، ولذا قال ربنا تعالى : (ففهمناها سليمان) ، قال الزمخشري : (وكل كان على صواب ، وما قاله سليمان أصوب) .. وأقول : ما أشد حاجتنا إلى الأصوب ، وما أشد حاجتنا إلى هذا الدرس العظيم وهو أخذ الحكمة بغض النظر عن سن صاحبها ..

أترضاه لأملك ؟

ومن عبقرية السلوك في الجواب النبوي قول رسول الله ﷺ لمن جاءه يسترخصه في الزنا :

— أترضاه لأملك ؟

— قال : لا .

— قال : أترضاه لأختك ؟

— قال : لا .

— قال ﷺ : (ما لا ترضاه لأملك ولا لأختك لا يرضاه

الناس لأمهاتهم ولا لأخواتهم) ..

إن ذلك أيضاً من قبيل الوصول إلى الغاية من أقصر طريق ، وهو أجدى وأنفع ، وأشد تأثيراً في النفس ، بخلاف المواعظ الطويلة ، والخطب الرنانة ..

ومثل ذلك قوله ﷺ لمن أراد أن يستنصحه : (عامل الناس بمثل ما تحب أن يعاملوك به) ..

ولا شك أن كل إنسان يجب أن يعامله الناس بمودة ورحمة وعدل وإحسان ، إلى آخر ما يود ، وعليه أن يعاملهم بذلك أيضاً ..

عبقرية السلوك في الدعاء :

الدعاء باب واسع ، اتساع ما يحتاج إليه العبد من صلاح أمر دنياه التي فيها معاشه ، ودينه الذي هو عصمة أمره ، وآخرته التي إليها معاده ، والله در القائل :

نروح ونغدو لحاجتنا وحاجات من عاش لا تنقضي

ولا غنى للإنسان كائناً من كان عن عون ربه تعالى وتوفيقه :

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأول ما يبغى عليه اجتهاده

وقد قال الله تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ .

وللدعاء ركائز وأركان ذكرتها في كتابي (ركائز الدعاء) ، وقد نشرت الأهرام تلك الركائز يومياً في شهر رمضان سنة ١٤٣٣ هـ .

ومن تلك الركائز التي لا بد أن يركز عليها دعاء المسلم كي يكون

دعاؤه مستجاباً بالإخلاص ، قال تعالى : ﴿ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ

لَهُ الدِّينَ ﴾ .

ومناخ النعم ، قال الله — عز وجل — : ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِئُ أَنَّى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٦﴾ هَذَا لَكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ۝﴾ .

ومنها التباسه بالعمل ، قال الله — عز وجل — : ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝﴾ ، إلى آخر تلك الركائز ..

لكني هنا أتوقف عند عبقريّة السلوك في الدعاء بعد أن يعتمد دعاؤنا على الركائز ، وتمثل تلك العبقريّة في الدعاء الموجز في عبارته المتضمن لصالح الدنيا والآخرة .

وقد كان أكثر دعاء النبي ﷺ : (اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) .

وحسنة الدنيا كل ما من شأنه أن يجعل الدنيا حسنة من صحة وعافية ، وزوج صالح (رجل أو امرأة) وأولاد طيبين ، ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۝﴾ .

ومال يستر العبد ، وجيرة حسنة إلى ما لا يحصى ..

وحسنة الآخرة دخول جنة رب العالمين ، ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۝﴾ .

وقد تمثل هذا السلوك العبقري في دعاء أصحاب الكهف الذي ذكره ربنا تعالى ، حيث قالوا : ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝﴾ .

قال أبو حيان عليه رحمة الله : « إن هذا دعاء جامع مانع يغني عن دعاء كثير ؛ لأن رحمة الله تعالى في الدنيا تكون بما ذكرت مما يحقق حسننها ، وفي الآخرة بدخول الجنة والنجاة من النار ، وبلوغ الرشاد معناه أن يوفق إلى ذلك باستقامته على الدين ، وطاعته رب العالمين ، واتباعه سنة خير المرسلين ﷺ » ..

وقد زار النبي ﷺ رجلاً مريضاً ، فوجده قد صار مثل الفرخ من شدة ضعفه ؛ فأدرك بنور النبوة أنه قد دعا على نفسه بشيء ، فسأله :

— هل دعوت على نفسك بشيء ؟

— فقال : نعم ..

— قال : ماذا قلت ؟

— قال : قلت : اللهم ما كنت معاقبى به في الآخرة فعجله لى في الدنيا ..

— فقال ﷺ : (لا تطيقه ، هلا قلت : ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) ، ودعا له ﷺ ..

وقد قال العلماء : إن خير الدعاء دعاء القرآن الكريم ، ومن يتأمل دعاء القرآن الكريم يجد تلك العبقريّة فيه ، ألا ترى إلى قوله تعالى :

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ كُنَّا مُسِيئِينَ أَوْ أخطَانَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ .

حيث جمع بين سؤال العفو والمغفرة والرحمة وتحقيق الولاية ، والتخفيف والنصر على القوم الكافرين ..

وإلى قوله تعالى : ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيَّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ .

حيث ذكر سابق فضل الله تعالى ورجاءه فيما بقى ؛ فسأله حسن الخاتمة ..

وكان من دعاء النبي ﷺ : (اللهم أحسن عاقبتنا في كل أمورنا) ..

وإلى قوله تبارك اسمه : ﴿وَأَصْلَحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾ .

حيث جعل الذرية محلاً للإصلاح ، وإذا كانت الذرية محلاً للإصلاح كان الإصلاح في جميع جنباتها ، من فوقها ومن تحتها ، ومن أمامها ومن خلفها ، وعن يمينها وعن شمالها ..

بل تأمل قول الله تعالى : ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ من شرِّ مَا خَلَقَ ، على وجه العموم ، ثم ذكر شيئاً من التفصيل فقال :

﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ (٢) ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ (٣) ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ .

فهذا جامع مانع :

ومثله قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ .

وإذا وهب الله للمرء من زوجه وذريته قرة عين له فقد تحققت له سعادة الدنيا ، وإذا جعله للمتقين إماماً فقد تحققت له سعادة الدنيا والآخرة ، فتقبل الله دعاءه ، ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ ، وأحبه الله ، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ .

وإذا أحب الله عبده كان سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، وأدخله الله تعالى واسع جنته : ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ .

ومن أدعية الصالحين التي تدل على عبقرية السلوك في الدعاء قول بعضهم : (اللهم لا تشغلني بما ضمنته لي واشغلي بما كلفتنى به) ..

فهذا من عبقرية السلوك في الدعاء ، يسأل الله تعالى ألا يشغله بما ضمنه له من رزق وعمر وكفاية ، ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ .

وسأله أن يشغله بما كلفه به من عبادة على الوجه الصحيح ، ومن معاملة يستقيم عليها الجنان الصحيح ، واللسان الفصيح ، والحق الصريح ، ولا شك أنه إذا استقام على ذلك فقد فتح الله باب الرحمة في الدنيا والآخرة أمامه ..

وقد جاء الأمر من عليا السماء بأدعية معينة هي من العبقرية بمكان ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ .

وقال — عز وجل — : ﴿ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ .

وكقوله تعالى : ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ وَأَجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا ﴾ .

والإدخال على صدق ، والإخراج على صدق من حسن البدايات وحسن النهايات ، فيا طيب مبتدأ ويا طيب مختتم .

عبقرية السلوك في التعبير عن المستقبل بالماضي :

الأزمة ثلاثة : ماض ، ومضارع الحال أو الاستقبال ، وأمر (الاستقبال فقط) ، تقول : ذهبت ، وفعلت ، ونجحت في الماضي ..

وتقول : أذهب وأفعل ، إما في الحال أو الاستقبال ..

ويخلص المضارع للاستقبال السين وسوف ، وفي النفي (لن) ، تقول : سأفعل ، وسوف أفعل ، وتقول : لن أفعل ..

كما يقلب زمانه إلى المضى (لم) ، تقول : لم أذهب ، ولم أفعل ، ومن ثم يقول العربون : (لم) حرف نفى وجزم وقلب ..

نفى : لأنها تنفى وقوع الحدث ..

وجزم : لأنها تجزم المضارع ..

وقلب : لأنها تقلب زمانه إلى المضى ..

ومعنى يخلصه للاستقبال أى يجعله خالصاً له دون اشتراك الحاضر فيه ، فأنت إذا قلت : أذهب ، احتمل وقوع ذهابك في الحال ، واحتمل كذلك وقوعه في الاستقبال ، أى يجوز أن يكون ذهابك الآن أو غداً ..

فإذا قلت : سأذهب ، أو سوف أذهب تخلص زمن الفعل للاستقبال ، أى سيكون منك ذهاب في المستقبل ..

والمراد بالاستقبال وقوع الحدث بعد زمان التكلم ، أى قد يكون ذهابك بعد لحظة من قولك سأذهب أو سوف أذهب ، وهذا يعد استقبالاً ..

ومن عبقرية السلوك في لغة القرآن الكريم أن يعبر عن المستقبل الذى لم يحدث بالماضى الذى يقتضى الوقوع يقيناً ، وهو ما عبر عنه العلماء بقولهم : لتحقق الوقوع .

فإذا كان الحدث محقق الوقوع عبر عنه بالماضى وإن لم يقع حقيقة ،
ومن أمثلة ذلك في القرآن الكريم قول الله تعالى في سورة النحل :
﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

فأمر الله تعالى وهو القيامة عبر عنه بالوقوع والإتيان مع أن القيامة
لم تقم ؛ وذلك لتحقيق وقوعها ، آمن من آمن ، وكفر من كفر ..

وفي الحديث الذى رواه البخارى وغيره يقول النبي ﷺ :
« حوسب رجل ممن كان قبلكم ، ولم يكن له من الخير شيء إلا أنه
كان يعامل الناس ، وكان يقول لصبيانه : تجاوزوا عن المعسر ، فقال
الله تعالى لملائكته : نحن أولى بذلك منه ، تجاوزوا عنه » ..

فإن الحساب يوم الحساب ، لكنه عبر عنه بالماضى لتحقيق الوقوع ،
وأن ذلك حديث صدق لا ريب فيه ، ولا شك ، ومن ثم قال عليه
الصلاة والسلام : (حوسب) ..

ومثله قوله : « دخل رجل الجنة بسبب كلب سقاه ، ودخلت
امرأة النار في هرة حبستها ، فلا هى أطعمتها ، ولا هى تركتها تأكل
من خشاش الأرض » ..

ومن أمثلة ذلك في الكتاب العزيز : ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ
جَهَنَّمَ زُمَرًا ﴾ ، وقوله تبارك اسمه : ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ
إِلَىٰ الْجَنَّةِ زُمَرًا ﴾ .

وقوله — عز وجل — : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي
السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا
هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴾ (١١) وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ
وَجَاءَ عِبَادُ اللَّهِ بِالْبَيِّنَاتِ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ
(١٢) وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ .

وفي خاتمة سورة الزمر التى منها هذه الآيات يقول عز من قائل :
﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ
مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ (١٣) وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ
حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ
وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

قال سبحانه : « ونفخ ، ثم نفخ ، وأشرق الأرض ، ووضع ،
وجيء ، وقضى ، ووفيت ، وقالوا ، وأورثنا ، وقضى ، وقيل » ، كل
ذلك بالماضى ، لتحقيق الوقوع

ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَاءِى قَالُوا
ءَاذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ ﴾ (١٤) وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ
وَوُظِّنُوا مَا لَهُمْ مِنْ مَّحِيصٍ ﴾ .

ما قال : ويوم يناديهم فيقولون ، أو سيقولون ، وإنما قال : قالوا ، وقال : وصل عنهم ، ما قال : وسوف يصل عنهم ما كانوا يدعون من قبل ..

والأمثلة على ذلك كثيرة جدًا ..

وثرته أن يكون العبد على يقين من وقوع ذلك ؛ فيعمل له ؛ لأنه لا شك واقع ، والشئ إذا كان محقق الوقوع كان كأنه قد وقع بالفعل ..

وشتان ما بين تصور شئ سوف يقع ، وبين ما وقع بالفعل ، لو تصوره المرء على أنه قد وقع بالفعل لكان أحوط ، وأشد أثرًا له في سلوكه وعمله الذي كلف بعمله من أجله ..

إنك إذا رأيت طالب علم مجتهدًا منكبًا على كتبه ، معتكفًا عليها ، فقلت له : (قد نجحت) ، فإنما تثبته وتشجعه ، لأنه باعتكافه على كتبه ، وتفرغه من أجل تحصيل ما فيها واستذكار دروسه كأنه يرى حسن عاقبته الآن ..

وكذلك إذا قلت لنقيضه المهمل الذي لا يعتكف على كتاب : (قد رسبت) ، فإنما تحذره من سوء عاقبته ، وكأنه يراها الآن ، كأنه قد ذهب إلى مدرسته أو جامعته ، واطلع على كشوف النتيجة معلقة على الجدار ، ووجد اسمه في كشوف الراسبين الفاشلين ؛ فذلك أدعى إلى أن ينتبه وأن يفيق من غفلته ، لعله يرجع عن هوه ولعبه ويعايش كتبه ، ويدرك ما فاتته ، ويندم على تقصيره وتفريطه ..

وكذلك لو عبر المسرف بهذه العبقرية ، فقال : هلكت ، بالماضي ، فلربما عاد إلى اعتداله ، ولم يسرف ..

بخلاف ما لو قال في نفسه ، أو قال له غيره : قد هلك ، فإنه سوف يقول : ياذن الله لن أهلك ، أما إذا قال : هلكت ، وهو مدرك معناه ، عامل بمقتضاه ، فإنه يرى عاقبته وقد تمثلت حقيقة أمام عينيه ، لا يرى غيرها ، ولا يرى فيها احتمال النقيض ؛ فذلك أوقع ، وأشد أثرًا ؛ لأنه لا مجال حينئذ للشك ، فأى شك وقد وقع الهلاك بالفعل ، ورأى مخاطره عليه ، فإذا هو يفيق كما يفيق الذي كتم أنفاسه كابوس مزعج ، فأفاق فجأة ، وحمد الله تعالى أنه في منام لا يقظة ، وسأل الله حسن المنام وحسن اليقظة معًا ..

وتأمل هذه الآية من سورة الأنعام ، حيث يقول ربنا تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ .

حيث عبر عن المستقبل بالماضي (ضللت) لتؤكد وقوعه إذا اتبع أهواءهم ، ما قال : فلا أتبع أهواءكم قد أضل ، وإنما قال : (قد ضللت) ؛ لأن اتباع الأهواء يؤدي حتمًا إلى الضلال ، ولن يستقر هذا المعنى إلا عن يقين يفيد التعبير بالماضي دون المستقبل ، ومن تصور الضلال واقعًا بالفعل نفر منه ، واستعاذ بالله من سبل الوقوع فيه ، وكان كما قلت كالنائم الذي أفاق من حلم بغض رأى فيه ظلمات بعضها فوق بعض ، أو وجد نفسه يجرى أمام وحش جبار ،

أدركه ، وفتح فمه ليلتله ، فحمد الله حيث أفاق ، وأدرك أن ذلك منام لا حقيقة ، وسأل الله ألا يريه ذلك حكماً أو حقيقة ، في يقظة أو منام ..

ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة :

نزلت الآية الكريمة من سورة الحشر : ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُخْجَلُونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ .

في عبقرية السلوك ، سلوك ذلك الأنصارى قيل هو أبو طلحة رضي الله عنه حين قال : أنا أضيف ضيف رسول الله ﷺ ، وتركه في المسجد وذهب إلى زوجته ، فسألها : هل عندنا من طعام ؟

ف قالت : ليس لدينا الليلة غير طعام الأطفال ..

فقال : أشغلهم حتى يناموا ، فإذا جئت بالضيف ، فقومى إلى المصباح ، وتظاهرى بأنك تصلحيه وأطفئيه ، فإذا جلسنا للطعام مع ضيف رسول الله ﷺ تظاهرنَا أنا وأنت بأننا نأكل ولا نأكل ، حتى يشبع ضيف رسول الله ﷺ . وقد كان ، وشبع الرجل ، ومضت الليلة ، وكان الصباح خير صباح عليه وعلى زوجته ، حيث ذهب إلى رسول الله ﷺ ، فلما رآه ابتسم ﷺ ، وقال له :

« إن الله قد ضحك عن فعلكما الليلة ، وأنزل فيكما هذه الآية » ، وتلاها عليه ..

إنه عبقرية السلوك ، فما ضر أن يبيت الأطفال ليلة بلا عشاء ، لن يموتوا ، وكذلك ما ضر أن يبيت والداهم بدون عشاء كذلك ، فإن الابتهاج بالعمل النبل يشبع النفس ، وإذا شبع النفس شبعت الجوارح بما فيهن البطن ..

ولو أن المرء أنفق ما في الأرض جميعاً ومثله معه من أجل أن تنزل فيه الآية الكريمة التي هي شهادة حق وصدق ، وبشرى نور ، لقال : ما أنفقت شيئاً ، أى أن مال الدنيا جميعاً ثمن قليل بالنسبة إلى إنزال قرآن مجيد في حق رجل أحسن صنعا ..

وليس بالضرورة أن البطن إذا شبع تشبع لشبعه النفس ؛ بل إن شبعه قد يكون وبالاً عليه ؛ من تخمة تصيبه ، ومن أضغاث أحلام تنغص عليه منامه ، وتكدر عليه صفوه ، وصدق الله العظيم إذ يقول في خاتمة الآية الكريمة : ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ .

ومن عبقرية السلوك قول النبي ﷺ : « طعام الواحد يكفي الاثنين ، وطعام الاثنين يكفي الأربعة » ، قال العلماء : « وإنما يكفي من حيث يسد جوع كل » ..

وإذا سد الجوع فلا خطر ، بل إن فيه سعادة لمن وفقه الله — عز وجل — فسد جوع غيره كذلك ، بخلاف ما لو ملأ بطنه ، وغيره يتضوع جوعاً وحرماناً ، وقد يموت ..

وقد قال عليه الصلاة والسلام : « لا يدخل الجنة من بات شبعان وجاره جائع إلى جواره وهو يعلم » ..

لو كان عبقرياً لغضب من درجة شبعه ، وسد جوع جاره ؛ فاستحق بذلك الجنة .

وتأمل في ذلك قول الله تعالى من سورة الأنفال : ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا هُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ .

حيث قال الله تعالى في الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا وإخوانهم الذين آووا ونصروا : ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ .

فمن الذى لا يطمع ، أو يتطلع إلى أن يكون مؤمناً حقاً !

﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ ﴾ .

منتهى العبقرية في السلوك أن تترك ما لا نعلم إلى ما نعلم حتى ننجز ، ونخصد ثمار إنجازنا خيراً لأنفسنا وأهلينا ، والأمة التى نحن لبنة فى صرحها ..

ومنتهى الغباء أن نغرق فيما لا علم لنا به ، ونهمل ما لنا به علم ، فإذا بنا نتأخر ، ونزداد تأخراً ..

والقرآن الكريم يضرب لنا مثلاً فى تلك العبقرية حيث بعث الله تعالى أصحاب الكهف ، وكان طبعياً أن يسأل بعضهم بعضاً عن مدة لبثهم فى الغار ؛ فأجاب بعضهم : لبثنا يوماً أو بعض يوم ، ثم انتهوا سريعاً من هذا البحث الذى لا يجدى الآن ، بأن قالوا : ﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴾ ﴿ ١٧ ﴾ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا ﴾ .

فانظر إلى هذه الدقة ، وهذا التفصيل فى الأهم ، الذين يعلمونه ، ويدركون بعده ، وكيف انصرفوا عن الغيب الذى لا يعلمونه بسرعة ، وتركوا الأمر فيه لمن له الغيب كله ، فذلك من إيماننا وإيمانهم به ..

كان منهم سؤال وجواب ، وتعقيب ، ثم طى الصفحة بسرعة ..

فالسؤال : كم لبثتم ؟

والجواب : لبثنا يوماً أو بعض يوم ..

والتعقيب : ربكم أعلم بما لبثتم ..

وانتهى الأمر ، ثم جاء التفصيل فيما لهم به علم ، من ضرورة أن يذهب أحدهم بما أعدوا لرحلتهم من مال ، كى يحضر لهم أزكى ما فى المدينة من طعام ، لأنهم يرفضون الدونية فى العبادة ، وفى الحياة ؛ لذا

قالوا : فليُنظر أيها أذكى طعاما ، من حيث كونه حلالاً ، ومن حيث كونه طيباً ، يستساغ ، ويؤكل بشهوة ورغبة وجمال ..

لم يكن شعار (أى حاجة ، وأى طعام) قد ساد فيهم ، وملك عليهم رغبتهم كما هو الآن عند كثير من المسلمين الذين صدهم عن الأذكى في الطعام والشراب والسكن والزواج ، وسبل العيش أمور ، منها الفقر ، وسوء الفقه ، الذى منه أن ليس شىء في هذه الدنيا مهماً ، وهذا ليس من الدين فى شىء ..

وتنبه على المختار منهم للقيام بتلك المهمة أن يتلطف فى سعيه ، وأن يأخذ حذره ..

فإن الجو الذى يحيط بهم — على زعمهم الذى خرجوا به — جو كفر ، وشرك ؛ لم يكونوا يعلمون بما مضى من زمان ، وأنهم الآن فى زمان دعوة إلى التوحيد ، وأنهم آية من آيات الدلالة عليه ، فقالوا له : تلطف ، ولا تشعر بنا أحداً ؛ لأن هؤلاء الكفرة إن ظهروا علينا وغلبونا فسوف يرجهوننا ، أو يعيدوننا فى ملتهم ، ولن نفلح إذا إن عدنا فى ملتهم أبداً ؛ فقد هجرناهم وفررنا من دينهم الباطل ، فما جدوى تلك الهجرة ، وما جدوى هذا الفرار إن أعادونا فى ملتهم ..

ونحن إزاء هذا الموقف القرآنى من مواقفه فى إبراز عبقرية السلوك أمام درسین عظیمین من دروس كثيرة :

الأول : ترك ما لا يجدى البحث فيه ، ولا إضاعة الوقت الذى هو عمرنا فيه ، ولطالما كان منا تلك المخالفة ، فانشغلنا بما لا يجدى ،

وتركنا ما يجدى ، وتعلقنا كما يقول العوام بالحبال البالية المقطعة ، وتركنا العروة الوثقى التى لا انفصام لها ، ﴿ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّبَغُوتِ وَيُؤْمِرْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ .

﴿ وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ .

وليس من الإحسان أن نضيع الوقت فيما لا خير فيه ولا سبيل إلى الوصول إليه ..

كنت قد اشتغلت بالتدريس فى وزارة التربية والتعليم قبل أن أصبح أستاذاً فى الجامعة عشر سنين ، وقد أعجبنى حوار أحد المديرين المستنيرين لإحدى المدارس التى عملت فيها مع والد طالب فاشل ، كان لا يرغب فى التعليم ، وقد بلغ السادسة عشرة ولم يزل فى الصف الثانى الإعدادى ، كان لا يحسن القراءة والكتابة ، لكنه كان يرغب فى حرفة أبوه الميكانيكى ، حاور هذا المدير والده الذى كان يتمنى أن يرى ولده قد أتم تعليمه إلى الجامعة ، ولو دفع ثمن ذلك عينيه ، قال له المدير كلمة لا أنساها ، هى بنصها وحروفها :

(إن الله وهب ولدك عبقرية فى يديه لا فى مخه ، فخذ معك فى ورشتك حتى لا تضيع عمره فى رحلة لن ينجح فيها ، فما تزيده إلا تخسيراً) ..

تذكرت هذه المقولة ، وتذكرت قول الخليل بن أحمد جهيد العربية العلم ، حيث جاءه رجل يتعلم على يديه علمي العروض والقوافي ، ورأى الخليل أنه لا فائدة منه ، ولن يحصل هذين العلمين أبدًا ، فقال له في أدب جم ، وفورية عبقرية : قطع هذا البيت :

إذا لم تستطع شيئاً فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع

وذلك من عبقرية الخليل ، وكان من عبقرية هذا الرجل أن ودع الخليل ، ومضى إلى دياره وقومه ..

ويا ليت أمثال هذا الرجل في زماننا ، يفهم بالإشارة ، ويدرك الأبعاد ، وينصرف من حيث لا طاقة له به إلى ما له به طاقة ..

لكن مع الأسف لدينا الألوף المؤلفة من نقيضه الذين يموتون عشقاً فيما لا طاقة لهم به ، ويزعمون أن في ذلك إصراراً هو من شيم الرجال ، ومن دعوة الإسلام ، وليس ذلك صحيحاً ..

فمن دعاء القرآن الكريم قول الله — عز وجل — في خاتمة سورة البقرة : ﴿ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ﴾ .

وقد وجدت في صحيح البخارى هذا الحديث الشريف الذى ورد فيه أن رجلاً سأل النبی ﷺ أن يحدثه عن الهجرة ؛ فسأله النبی ﷺ قائلاً : ألك من إبل ؟

قال : نعم ..

قال : هل تؤدى صدقتها ؟ يعنى زكاتها ..

قال : نعم ..

قال : ارجع إلى أهلك ، واراع إبلك ، وأدّ صدقتها ، واعلم أن الله لن يترك (ينقصك) عملك ولو كنت من وراء البحار ..

ما رحب رسول الله ﷺ بوجوده إلى جواره على حساب إهماله إبله ، وصدقته التي يحتاج إليها الفقراء والمساكين ، وإنما أعلمه أن رعايته إبله ، وتأديته صدقتها عمل كامل الأجر ، غير منقوص ..

وقد كان إلى جوار أبي ذر الغفارى ﷺ رجل لا يحفظ إلا ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ فسأه ذلك ، فاشتكى ، وظن أنه بذلك معيب منقوص ، فقال له ﷺ : (إنها تعدل ثلث القرآن) .

أى من حيث المعنى والمقصد ، ولا شك أن الذى لا يحفظ غيرها لكنه يحفظ أسرار حرفة ويعمل ، فيكفى نفسه وأسرته ، وينفع أمته ، وهذا هو الهدى النبوى العظيم ..

وقد يعرض مثل هذا الرجل على هاوية من هواة الدعاة ، ليس له من العلم ما يحصنه فيرميه بضعف الإيمان ، وسوء الفقه ، وأن آخرته سوف تكون سوداء ..

والله — عز وجل — يقول : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ ، وَثُلُثُهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عِلْمَ أَن لَّنْ نُّحْصِيَهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي

الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ^١ وَآخَرُونَ يُقْتَتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ^٢ فَأَقْرَعُوا مَا تَيْسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

فمن أجل المرضى ، والضاربين في الأرض الذين يبتغون من فضل الله ، والمقاتلين في سبيل الله شرعت قراءة ميسرة من الذكر الحكيم ، كما شرع التخفيف في صلاة الجماعة ، قال ﷺ : « من أم بالناس فليخفف ؛ فإن منهم المريض والمسافر وذا الحاجة » .

والدرس الثاني : هو درس المسارعة في التقدم في شتى المجالات حتى لا يظهر علينا غيرنا ، فإننا لو ظهرنا على غير المسلمين رحمتهم ، حيث إن ديننا هو دين الرحمة والتسامح ، والتصدق على كل ذات كبد رطبة ..

أما إذا ظهروا علينا فكما قال الله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا ﴾ .

وقال عز من قائل في آية التوبة : ﴿ كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ .

ولن يتحقق لنا ظهور عليهم إلا بحسن إسلامنا الذي يدعونا إلى إتقان العمل ..

ونحن لا يمكن أن نتقن عملاً إلا إذا تفكرنا فيه ، واجتهدنا في الأخذ بأسباب تطوره والنهوض به إلى المستوى الذي قال الله فيه : ﴿ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ﴾ .

وهيهات أن يكون لنا ذلك ونحن مشغولون بغيره مما لا طائل من ورائه ..

وقد أعجبتني قصة الرجل الذي حرق مصنعه ؛ فجاءه الناس يعزونه ، فسألوه عن سبب الحريق ؛ فقال لهم : « لا تسألوني عن ذلك ، واسألوني ماذا أنا صانع غداً » ..

وأزعم أن هذا الرجل كان حكيماً عبقرياً حيث رغب في طي صفحة لن يجدى فيها البحث ، ورغب في فتح صفحة مشرقة جديدة ، وصدق الله العظيم حيث يقول : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۝ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ .

ولا تناقض بين ذلك ، وبين الإفادة من تجارب الماضي ، لكي نتلاشى الوقوع فيه مرة أخرى ، وشتان ما بين فتح صفحة من أجل أخذ الدرس والعبرة ، ثم الانطلاق بعدها على بصيرة إلى عمل جديد

مفيد ، يتجنب فيه الخطأ ، وينشد فيه الصواب ، بدليل قول الله تعالى :
(واذكروا واذكروا واذكروا) ..

لكن كما قلت هناك فرق بين التذكر ، والتفرغ للدراسة في الماضي ، وفي الحديث (لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين) ، وهذا يفيد أخذ الحذر ، وتوقي الوقوع في ماضى المآسى ونحن منطلقون إلى حياة جديدة ، لا بد أن نبصر فيها طريقنا ، ونرى رفيقنا من عدونا ، ونحن نتوكل على الله ربنا ..

شئ من عبقرية النبوة :

من قديم عرف الناس عبقرية السلوك ، التي تتمثل في كلمة طيبة ، وشهادة حق ، وحسن عشرة ، وحسن جوار ، وإكرام ضيف ، وطيب رائحة ، وحسن خطاب ، وتصرف مع المواقف المختلفة ..

كان عبد المطلب جد رسول الله ﷺ عبقرياً حين ذهب إلى أبرهة الحبشى ، وطالبه بثمان الإبل التي هي له ، فلما قال له : كنت أظن أنك تخاطبني في أمر البيت الذي هو شرفك وشرف قومك ، قال له عبد المطلب : « أما الإبل فهي لى ، وأنا ربها ، وأما البيت فله رب يحميه » ..

وكان أبو طالب عم رسول الله ﷺ عبقرياً حين قال لأهل مكة وقد جاءوه يعرضون عليه أمدى فتى في قريش بديلاً عن محمد ﷺ يسلمهم إياه ، فقال لهم : « أعطيكم ولدى تقتلونهم ، وتعطوني ابنكم أغذوه لكم ؟! ليس هذا بالنصف » ، (أى ليس هذا بالعدل) ..

وكان من قبل حاتم الطائي الذي ضرب به المثل في الكرم والجود عبقرياً حين أضاف الضيوف ، وكان ملاذاً للسايرين بالليل ، فشاع ذكره ، وذكره التاريخ في أنصع صفحاته بما قدمته يده ..

هانت الدنيا على حاتم الطائي فاحتفلت به الدنيا جميعاً ..

والنبي ﷺ آية الآيات في العبقرية ، فهو أكرم الناس ، وأجود الناس ، وكان أجود ما يكون في رمضان ..

ومن آيات عبقريته ﷺ أنه ما قال لسائل : لا ؛ إن كان عنده حاجته أعطاه ، وإن لم تكن عنده قال له : (ابتع علي) ، أى اشترِ علي حسابي ، أى : اشترِ حاجتك ، وحسابها عندي ..

ومع عبقرية النبي ﷺ كان لا يتكلف ، وقد زار بعض التابعين صحابياً جليلاً ، فقدم إليهم ما عنده ، وقال : « لولا أن النبي ﷺ نهانا عن التكلف لتكلفنا لكم » .

استأذن ﷺ على أهله ، ومعه جابر بن عبد الله ، فقدم إليه ما عنده ، فسأله عنه جابر رضي الله عنه فقال : (قناء نكث به طعامنا) ..

وكان ﷺ معه ذات يوم ، فجاء إليه بثلاثة أرغفة ، فوضع ﷺ أمام جابر رغيفاً ، ووضع أمامه رغيفاً ، وقسم الثالث بينهما ، تلك قسمة العدل حتى على مائدة الطعام .

وكثير من الناس يستدين من أجل إكرام الضيف ، لا سيما إذا كان خاطبًا لفتاتهم ، يحاولون أن يظهرُوا بالمظهر اللائق أمامه ، وأمام أهله ، ويبينوا له أنهم أصحاب مستوى عال من المعيشة ..

وليس هذا من الإسلام الذى يدعو أتباعه إلى تلك العبقرية العظيمة من السلوك ، حيث إنه لا تكلف فيه ..

ناهيك بالتكلف الذى قد يحدث من المرء مع أهله ، فبعض الناس يعزف عن الطعام لسبب تافه من نقصان شىء لا يؤثر ، أو من إضافة شىء لا يضر ، يقول أحدهم : كيف أتناول هذا الطعام بلا ليمون ، أو بلا سلطة ، أو بلا فلفل ، أو يرى صنفًا مضافًا إلى ما يجب ، فيصيح : من صنع به ؟ وما الذى جاء به ، وقد يكون هذا الصنف محببًا إلى زوجته التى شققت فى إعداد ما يجب ، أو محببًا إلى ولده الذى هو فلذة كبده ..

وقد جاء أبو الهيثم التيهانى رحمته الله بصنوف البلح وألوانه ، فقال له رحمته الله : (كان يكفى أن تأتى ببعض الرطب) ، فقال رحمته الله : (ليأكل كل مشتهاه يا رسول الله) ، وكان معه رحمته الله أبو بكر وعمر رضى الله عنهما ..

وتلك معادلة من معادلات العبقرية ، أن يقول الضيف لمن أضافه : هذا كثير ، وأن يقول المضيف لضيفه : قد تشتهى هذا أو ذاك ، أو : كل مما تشتهى ، حفاوة به ، وابتهاجًا بزيارته ، وإسعادًا له ..

وليس من الإسلام أن يقدم له شيئًا وهو قادر على أن يأتيه بأشياء ..

وليس منه أن يستقل الضيف ما قدمه إليه مضيفه ، أو أن يقول له : أهذا ما استطعته ، تمكّمًا به ، وسخرية منه ، واستقلالًا لما قدم ..

ومن عبقرية السلوك فى هذا الدين أن يبادر المضيف بتقديم وشيك القرى ، لا أن يتأخر عنه ، ألا ترى إلى قوله تعالى فى إبراهيم عليه السلام : ﴿فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيزٍ﴾ .

والتكلف فى الغالب يكون سببًا فى هذا التأخير ، إلى أن يتم إعداد ما يتكلف به .

والتكلف ليس من الإسلام ، الذى بُنى على أركان عمادها الصلاة ، من أقامها فقد أقام الدين ، ومن هدمها فقد هدم الدين ، ولا تكلف فيها ولا إسراف فى الوضوء من أجلها ، ولو كان المتوضى على نهر جار ..

ولا فى إقامتها قائمًا وهو غير قادر على القيام ، فالقيام ركن من أركان الصلاة للقادر عليه ، فإن لم يقدر صلى قاعدًا ، فإن لم يقدر صلى مضطجعًا ..

ولا تكلف فى عبادة من العبادات ، فالزكاة على من كان له مال ، وبلغ النصاب ، والصيام للقادر عليه ، والحج كما قال الله تعالى : ﴿مَنْ أَسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ .

وكذلك لا تكلف فى معاملة ، ومنها إكرام الضيف ..

عبقرية زوجة :

خرج أبو طلحة رضي الله عنه ، وقد ترك طفلاً له مريضاً ، فلما رجع سأل عنه أمه ، التي هي زوجته ، فقال : كيف حال ابننا ؟
قالت : هو في أسكن أحواله .

وكان الولد قد مات ، وأبو طلحة أبوه خارج البيت ، وقدمت له عشاءه ، وهيأت له نفسها ، فعاشرها ، فلما أصبح سألته : لو أن إنساناً أعطاك أمانة ، وجاءك ليأخذها أترأك تغضب ؟
فقال : لا ، ولم الغضب ؟

فقالت له : فإن الله قد استرد أمانته ، والولد قد مات ..

وحدث أبو طلحة رسول الله ﷺ بما كان ، فسأله : (هل عرستما الليلة ؟)
فقال : نعم ..

فقال : (إن الله سيبدلكما خيراً منه) ، وقد كان وأبدلهما الله — عز وجل — خيراً منه ..

هذا السلوك يكاد يكون مفقوداً في زماننا ، حيث إن مثل هذا الموقف بالذات يكون بالصراخ والعيويل والنسب ، وإن خف أو كاد يخف قبل قدوم الزوج زاد عند قدومه واشتعل ، وهاجت الزوجة ، وهيجت عواطف الزوج ، وأثارته ، فلم تكن عوناً له على الصبر ،

الذي هو دليل على الهدى ، قال تعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَنَشِيرُ الصَّابِرِينَ ﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْتَخُونَ ﴿١٥٧﴾ .

وبهذه المناسبة ، وفي هذا السياق للحديث الشريف الذي اتفق عليه الشيخان البخاري ومسلم أذكر أن أبا طلحة رضي الله عنه أراد أن يطلق تلك الزوجة أم سليم ، وحدث بذلك رسول الله ﷺ ، فقال عليه الصلاة والسلام : (إن طلاق أم سليم حوب) ؛ أى ظلم ، فصرف أبو طلحة النظر عن تلك الفكرة الطارئة ..

وصدق رسول الله ﷺ في ذلك ، فإن طلاق مثل هذه الزوجة التي سترت عن زوجها نبأ وفاة ولده الذي هو ولدها ، وهي امرأة ، والمرأة عاطفتها أشد تأجباً خصوصاً في مثل هذا الموقف الرهيب ، فقد كانت قادرة على حبس دموعها ، وضبط نفسها ، بل كانت قادرة على الانسلاخ من هذا كله حتى مكنته من نفسها دون أن تريه شيئاً من مكنون نفسها ؛ فلم يلحظ عليها أدنى تغيير في حركة أو انفعال ، أو تفاعل ..

مثل هذه الزوجة يكون طلاقها كما قال النبي ﷺ ظلمًا ؛ لأن الطلاق فراق ، فإذا فارق الرجل مثل هذه المرأة العبقرية فمن يعاشر من النساء !

أيعاشر صانعة أحزان ، التي تستدعيها دون أن يكون لها سبب أو داع ؟

أم يعاشر تلك التي لا تدخل المسرة على قلبه ، وإن توفرت جميع أسباب المسرة حولها ، وفي بيتها ..

نعم هناك من لا تفرح بالنعمة ، ولا تشعر زوجها بأنه ذو فضل ، فهي تكفره ، كما جاء في الحديث الشريف ، الذي قال فيه النبي ﷺ : « اطلعت على النار ، فوجدت أكثر أهلها من النساء » ، فلما سئل عن ذلك ﷺ قال : « لأنهن يكفرن العشير ، ويكثرن اللعن » ..

العشير : الزوج ، ومعنى أنها تكفر العشير ، أى تستر حسناته خصوصاً إذا حدث منه شيء يسىء إليها ، قالت : ما رأيت منك خيراً أبداً ..

سلوك الجوار :

الجوار نوعان : جوار مكان ، وجوار مكانة وانتماء ، وجوار المكان معروف ، أن يكون لك جار في السكن ، أو في السفر ، أو في العمل .

وجوار المكانة والانتماء أن تقول لشخص : أنت في جوارى ، أو يقول لك : أجرني ؛ فتقول له : أنت في جوارى ، أى فى حمى ، وفى رعايتى ، ما يسرك يسرنى ، وما يسوؤك يسوؤنى ، فترعاه ، ولا يتعدى عليه أحد ؛ لأنه فى جوارك ..

والإحسان إلى الجوار من عزم الأمور ، قال الله تعالى : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ .

وقد روى البخارى في صحيحه قول النبي ﷺ : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره » ..

وقد ذكرت امرأة عند رسول الله ﷺ بأنها كثيرة الصلاة والصيام لكنها تؤذى جيرانها بلسانها ، فقال : (هى فى النار) ، وذكرت امرأة أخرى قليلة الصيام والصلاة ، ولكنها لا تؤذى جيرانها ، فقال : (هى فى الجنة) ..

وحين كان جيران النبي ﷺ فى مكة يؤذونه ، ويلقون بالقاذورات أمام بيته ناداهم ﷺ ، وقال : (أى جوار هذا ؟)

فما عسى أن يقال اليوم بمن يفعلون ذلك ، ولجيرانهم يسيئون ، ويشتمون ويسبون ، ويزعجون ..

لقد باع أحد الناس داره بالمدينة المنورة ، وذلك بثمن بخس ، فلامه الناس ، فأنشأ يقول :

يلوموننى أن بعت بالرخص متزلى ولم يعلموا جاراً هناك ينغص
فقلت لهم كفوا الملام فإغما بجيرانها تغلو الديار وترخص

وعلم جار بأن جاره أراد أن يبيع داره ، فلما جاءه المشتري بثمانها ، قال له : هذا ثمن دارى ، فأين ثمن جارى ؟

فتعجب الناس ، وقالوا : هل للجار من ثمن ؟ ما سمعنا بهذا ..

فقال : ألا تشترون جوار من إذا أسأتم إليه أحسن ، ومن إذا غبتم عنه سأل ، ومن إذا احتجتم أعانكم ..

وعلم جاره بذلك ، فأرسل إليه ثمن داره ، وقال له : بارك الله لك فى جارك وفى دارك ..

عبقرية أم :

تلك امرأة خرجت برضيعها مع جارة لها خرجت أيضاً برضيعها ، تشقيان من أجل لقمة العيش ، صغرى وكبرى ، وضعتا طفليهما على رأس أرض ، وراحتا تجمعان منها الحطب ..

وعدا الذئب على أحد الرضيعين فأكله ، فاختصمتا فى الحى ، هذه تقول : هو ابنى ، وإنما أكل الذئب ابنك ..

وتحاكما إلى نبي الله داود عليه السلام ، فحكم به للكبرى ، فلما خرجتا من عنده قال سليمان عليه السلام : بم حكم نبي الله ؟

قيل : حكم به للكبرى ..

فقال سليمان : ائتوني بسكين ، أشقه نصفين ، وأعطى كل واحدة منهما نصفه ، فقالت الصغرى : لا تفعل يرحمك الله ، هو ابنها ، وتنازلت عنه حتى لا يشق نصفين ..

نعم تلك هى الأم التى تؤثر أن يعيش ابنها ولو بعيداً عن عينيها ، وهو لعينيها حبة الضوء ، وكحل الزينة ، لكن أن تتصوره عيناها حياً سعيداً رغداً خير لها من أن تراه قد قطع نصفين بسكين ..

هذا سلوك العباقرة ، لا الأغبياء الذين يرون أن الشيء الذى يريدونه ، ويذهب من أيديهم حقه أن يحرق ، ويقولون : بيدى لا بيد عمرو ، ويقولون : إن جاءك الطوفان فضع ولدك تحت قدميك ، ويقولون : على وعلى أعدائى ، ويعتدون فى ذلك اعتداء كبيراً ، والله لا يحب المعتدين ..

وكم من أم ضيعت ولدها ، أو أولادها بيدها ، وكان بوسعها أن تحافظ عليهم بشيء من التنازل ، وقد قال الله — عز وجل — : ﴿ وَإِنْ أَمْرَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ ۚ ۝ ١٠٨ ۚ ۝ ١٠٩ ۚ ۝ ١١٠ ۚ ۝ ١١١ ۚ ۝ ١١٢ ۚ ۝ ١١٣ ۚ ۝ ١١٤ ۚ ۝ ١١٥ ۚ ۝ ١١٦ ۚ ۝ ١١٧ ۚ ۝ ١١٨ ۚ ۝ ١١٩ ۚ ۝ ١٢٠ ۚ ۝ ١٢١ ۚ ۝ ١٢٢ ۚ ۝ ١٢٣ ۚ ۝ ١٢٤ ۚ ۝ ١٢٥ ۚ ۝ ١٢٦ ۚ ۝ ١٢٧ ۚ ۝ ١٢٨ ۚ ۝ ١٢٩ ۚ ۝ ١٣٠ ۚ ۝ ١٣١ ۚ ۝ ١٣٢ ۚ ۝ ١٣٣ ۚ ۝ ١٣٤ ۚ ۝ ١٣٥ ۚ ۝ ١٣٦ ۚ ۝ ١٣٧ ۚ ۝ ١٣٨ ۚ ۝ ١٣٩ ۚ ۝ ١٤٠ ۚ ۝ ١٤١ ۚ ۝ ١٤٢ ۚ ۝ ١٤٣ ۚ ۝ ١٤٤ ۚ ۝ ١٤٥ ۚ ۝ ١٤٦ ۚ ۝ ١٤٧ ۚ ۝ ١٤٨ ۚ ۝ ١٤٩ ۚ ۝ ١٥٠ ۚ ۝ ١٥١ ۚ ۝ ١٥٢ ۚ ۝ ١٥٣ ۚ ۝ ١٥٤ ۚ ۝ ١٥٥ ۚ ۝ ١٥٦ ۚ ۝ ١٥٧ ۚ ۝ ١٥٨ ۚ ۝ ١٥٩ ۚ ۝ ١٦٠ ۚ ۝ ١٦١ ۚ ۝ ١٦٢ ۚ ۝ ١٦٣ ۚ ۝ ١٦٤ ۚ ۝ ١٦٥ ۚ ۝ ١٦٦ ۚ ۝ ١٦٧ ۚ ۝ ١٦٨ ۚ ۝ ١٦٩ ۚ ۝ ١٧٠ ۚ ۝ ١٧١ ۚ ۝ ١٧٢ ۚ ۝ ١٧٣ ۚ ۝ ١٧٤ ۚ ۝ ١٧٥ ۚ ۝ ١٧٦ ۚ ۝ ١٧٧ ۚ ۝ ١٧٨ ۚ ۝ ١٧٩ ۚ ۝ ١٨٠ ۚ ۝ ١٨١ ۚ ۝ ١٨٢ ۚ ۝ ١٨٣ ۚ ۝ ١٨٤ ۚ ۝ ١٨٥ ۚ ۝ ١٨٦ ۚ ۝ ١٨٧ ۚ ۝ ١٨٨ ۚ ۝ ١٨٩ ۚ ۝ ١٩٠ ۚ ۝ ١٩١ ۚ ۝ ١٩٢ ۚ ۝ ١٩٣ ۚ ۝ ١٩٤ ۚ ۝ ١٩٥ ۚ ۝ ١٩٦ ۚ ۝ ١٩٧ ۚ ۝ ١٩٨ ۚ ۝ ١٩٩ ۚ ۝ ٢٠٠ ۚ ۝ ٢٠١ ۚ ۝ ٢٠٢ ۚ ۝ ٢٠٣ ۚ ۝ ٢٠٤ ۚ ۝ ٢٠٥ ۚ ۝ ٢٠٦ ۚ ۝ ٢٠٧ ۚ ۝ ٢٠٨ ۚ ۝ ٢٠٩ ۚ ۝ ٢١٠ ۚ ۝ ٢١١ ۚ ۝ ٢١٢ ۚ ۝ ٢١٣ ۚ ۝ ٢١٤ ۚ ۝ ٢١٥ ۚ ۝ ٢١٦ ۚ ۝ ٢١٧ ۚ ۝ ٢١٨ ۚ ۝ ٢١٩ ۚ ۝ ٢٢٠ ۚ ۝ ٢٢١ ۚ ۝ ٢٢٢ ۚ ۝ ٢٢٣ ۚ ۝ ٢٢٤ ۚ ۝ ٢٢٥ ۚ ۝ ٢٢٦ ۚ ۝ ٢٢٧ ۚ ۝ ٢٢٨ ۚ ۝ ٢٢٩ ۚ ۝ ٢٣٠ ۚ ۝ ٢٣١ ۚ ۝ ٢٣٢ ۚ ۝ ٢٣٣ ۚ ۝ ٢٣٤ ۚ ۝ ٢٣٥ ۚ ۝ ٢٣٦ ۚ ۝ ٢٣٧ ۚ ۝ ٢٣٨ ۚ ۝ ٢٣٩ ۚ ۝ ٢٤٠ ۚ ۝ ٢٤١ ۚ ۝ ٢٤٢ ۚ ۝ ٢٤٣ ۚ ۝ ٢٤٤ ۚ ۝ ٢٤٥ ۚ ۝ ٢٤٦ ۚ ۝ ٢٤٧ ۚ ۝ ٢٤٨ ۚ ۝ ٢٤٩ ۚ ۝ ٢٥٠ ۚ ۝ ٢٥١ ۚ ۝ ٢٥٢ ۚ ۝ ٢٥٣ ۚ ۝ ٢٥٤ ۚ ۝ ٢٥٥ ۚ ۝ ٢٥٦ ۚ ۝ ٢٥٧ ۚ ۝ ٢٥٨ ۚ ۝ ٢٥٩ ۚ ۝ ٢٦٠ ۚ ۝ ٢٦١ ۚ ۝ ٢٦٢ ۚ ۝ ٢٦٣ ۚ ۝ ٢٦٤ ۚ ۝ ٢٦٥ ۚ ۝ ٢٦٦ ۚ ۝ ٢٦٧ ۚ ۝ ٢٦٨ ۚ ۝ ٢٦٩ ۚ ۝ ٢٧٠ ۚ ۝ ٢٧١ ۚ ۝ ٢٧٢ ۚ ۝ ٢٧٣ ۚ ۝ ٢٧٤ ۚ ۝ ٢٧٥ ۚ ۝ ٢٧٦ ۚ ۝ ٢٧٧ ۚ ۝ ٢٧٨ ۚ ۝ ٢٧٩ ۚ ۝ ٢٨٠ ۚ ۝ ٢٨١ ۚ ۝ ٢٨٢ ۚ ۝ ٢٨٣ ۚ ۝ ٢٨٤ ۚ ۝ ٢٨٥ ۚ ۝ ٢٨٦ ۚ ۝ ٢٨٧ ۚ ۝ ٢٨٨ ۚ ۝ ٢٨٩ ۚ ۝ ٢٩٠ ۚ ۝ ٢٩١ ۚ ۝ ٢٩٢ ۚ ۝ ٢٩٣ ۚ ۝ ٢٩٤ ۚ ۝ ٢٩٥ ۚ ۝ ٢٩٦ ۚ ۝ ٢٩٧ ۚ ۝ ٢٩٨ ۚ ۝ ٢٩٩ ۚ ۝ ٣٠٠ ۚ ۝ ٣٠١ ۚ ۝ ٣٠٢ ۚ ۝ ٣٠٣ ۚ ۝ ٣٠٤ ۚ ۝ ٣٠٥ ۚ ۝ ٣٠٦ ۚ ۝ ٣٠٧ ۚ ۝ ٣٠٨ ۚ ۝ ٣٠٩ ۚ ۝ ٣١٠ ۚ ۝ ٣١١ ۚ ۝ ٣١٢ ۚ ۝ ٣١٣ ۚ ۝ ٣١٤ ۚ ۝ ٣١٥ ۚ ۝ ٣١٦ ۚ ۝ ٣١٧ ۚ ۝ ٣١٨ ۚ ۝ ٣١٩ ۚ ۝ ٣٢٠ ۚ ۝ ٣٢١ ۚ ۝ ٣٢٢ ۚ ۝ ٣٢٣ ۚ ۝ ٣٢٤ ۚ ۝ ٣٢٥ ۚ ۝ ٣٢٦ ۚ ۝ ٣٢٧ ۚ ۝ ٣٢٨ ۚ ۝ ٣٢٩ ۚ ۝ ٣٣٠ ۚ ۝ ٣٣١ ۚ ۝ ٣٣٢ ۚ ۝ ٣٣٣ ۚ ۝ ٣٣٤ ۚ ۝ ٣٣٥ ۚ ۝ ٣٣٦ ۚ ۝ ٣٣٧ ۚ ۝ ٣٣٨ ۚ ۝ ٣٣٩ ۚ ۝ ٣٤٠ ۚ ۝ ٣٤١ ۚ ۝ ٣٤٢ ۚ ۝ ٣٤٣ ۚ ۝ ٣٤٤ ۚ ۝ ٣٤٥ ۚ ۝ ٣٤٦ ۚ ۝ ٣٤٧ ۚ ۝ ٣٤٨ ۚ ۝ ٣٤٩ ۚ ۝ ٣٥٠ ۚ ۝ ٣٥١ ۚ ۝ ٣٥٢ ۚ ۝ ٣٥٣ ۚ ۝ ٣٥٤ ۚ ۝ ٣٥٥ ۚ ۝ ٣٥٦ ۚ ۝ ٣٥٧ ۚ ۝ ٣٥٨ ۚ ۝ ٣٥٩ ۚ ۝ ٣٦٠ ۚ ۝ ٣٦١ ۚ ۝ ٣٦٢ ۚ ۝ ٣٦٣ ۚ ۝ ٣٦٤ ۚ ۝ ٣٦٥ ۚ ۝ ٣٦٦ ۚ ۝ ٣٦٧ ۚ ۝ ٣٦٨ ۚ ۝ ٣٦٩ ۚ ۝ ٣٧٠ ۚ ۝ ٣٧١ ۚ ۝ ٣٧٢ ۚ ۝ ٣٧٣ ۚ ۝ ٣٧٤ ۚ ۝ ٣٧٥ ۚ ۝ ٣٧٦ ۚ ۝ ٣٧٧ ۚ ۝ ٣٧٨ ۚ ۝ ٣٧٩ ۚ ۝ ٣٨٠ ۚ ۝ ٣٨١ ۚ ۝ ٣٨٢ ۚ ۝ ٣٨٣ ۚ ۝ ٣٨٤ ۚ ۝ ٣٨٥ ۚ ۝ ٣٨٦ ۚ ۝ ٣٨٧ ۚ ۝ ٣٨٨ ۚ ۝ ٣٨٩ ۚ ۝ ٣٩٠ ۚ ۝ ٣٩١ ۚ ۝ ٣٩٢ ۚ ۝ ٣٩٣ ۚ ۝ ٣٩٤ ۚ ۝ ٣٩٥ ۚ ۝ ٣٩٦ ۚ ۝ ٣٩٧ ۚ ۝ ٣٩٨ ۚ ۝ ٣٩٩ ۚ ۝ ٤٠٠ ۚ ۝ ٤٠١ ۚ ۝ ٤٠٢ ۚ ۝ ٤٠٣ ۚ ۝ ٤٠٤ ۚ ۝ ٤٠٥ ۚ ۝ ٤٠٦ ۚ ۝ ٤٠٧ ۚ ۝ ٤٠٨ ۚ ۝ ٤٠٩ ۚ ۝ ٤١٠ ۚ ۝ ٤١١ ۚ ۝ ٤١٢ ۚ ۝ ٤١٣ ۚ ۝ ٤١٤ ۚ ۝ ٤١٥ ۚ ۝ ٤١٦ ۚ ۝ ٤١٧ ۚ ۝ ٤١٨ ۚ ۝ ٤١٩ ۚ ۝ ٤٢٠ ۚ ۝ ٤٢١ ۚ ۝ ٤٢٢ ۚ ۝ ٤٢٣ ۚ ۝ ٤٢٤ ۚ ۝ ٤٢٥ ۚ ۝ ٤٢٦ ۚ ۝ ٤٢٧ ۚ ۝ ٤٢٨ ۚ ۝ ٤٢٩ ۚ ۝ ٤٣٠ ۚ ۝ ٤٣١ ۚ ۝ ٤٣٢ ۚ ۝ ٤٣٣ ۚ ۝ ٤٣٤ ۚ ۝ ٤٣٥ ۚ ۝ ٤٣٦ ۚ ۝ ٤٣٧ ۚ ۝ ٤٣٨ ۚ ۝ ٤٣٩ ۚ ۝ ٤٤٠ ۚ ۝ ٤٤١ ۚ ۝ ٤٤٢ ۚ ۝ ٤٤٣ ۚ ۝ ٤٤٤ ۚ ۝ ٤٤٥ ۚ ۝ ٤٤٦ ۚ ۝ ٤٤٧ ۚ ۝ ٤٤٨ ۚ ۝ ٤٤٩ ۚ ۝ ٤٥٠ ۚ ۝ ٤٥١ ۚ ۝ ٤٥٢ ۚ ۝ ٤٥٣ ۚ ۝ ٤٥٤ ۚ ۝ ٤٥٥ ۚ ۝ ٤٥٦ ۚ ۝ ٤٥٧ ۚ ۝ ٤٥٨ ۚ ۝ ٤٥٩ ۚ ۝ ٤٦٠ ۚ ۝ ٤٦١ ۚ ۝ ٤٦٢ ۚ ۝ ٤٦٣ ۚ ۝ ٤٦٤ ۚ ۝ ٤٦٥ ۚ ۝ ٤٦٦ ۚ ۝ ٤٦٧ ۚ ۝ ٤٦٨ ۚ ۝ ٤٦٩ ۚ ۝ ٤٧٠ ۚ ۝ ٤٧١ ۚ ۝ ٤٧٢ ۚ ۝ ٤٧٣ ۚ ۝ ٤٧٤ ۚ ۝ ٤٧٥ ۚ ۝ ٤٧٦ ۚ ۝ ٤٧٧ ۚ ۝ ٤٧٨ ۚ ۝ ٤٧٩ ۚ ۝ ٤٨٠ ۚ ۝ ٤٨١ ۚ ۝ ٤٨٢ ۝ ٤٨٣ ۝ ٤٨٤ ۝ ٤٨٥ ۝ ٤٨٦ ۝ ٤٨٧ ۝ ٤٨٨ ۝ ٤٨٩ ۝ ٤٩٠ ۝ ٤٩١ ۝ ٤٩٢ ۝ ٤٩٣ ۝ ٤٩٤ ۝ ٤٩٥ ۝ ٤٩٦ ۝ ٤٩٧ ۝ ٤٩٨ ۝ ٤٩٩ ۝ ٥٠٠ ۝ ٥٠١ ۝ ٥٠٢ ۝ ٥٠٣ ۝ ٥٠٤ ۝ ٥٠٥ ۝ ٥٠٦ ۝ ٥٠٧ ۝ ٥٠٨ ۝ ٥٠٩ ۝ ٥١٠ ۝ ٥١١ ۝ ٥١٢ ۝ ٥١٣ ۝ ٥١٤ ۝ ٥١٥ ۝ ٥١٦ ۝ ٥١٧ ۝ ٥١٨ ۝ ٥١٩ ۝ ٥٢٠ ۝ ٥٢١ ۝ ٥٢٢ ۝ ٥٢٣ ۝ ٥٢٤ ۝ ٥٢٥ ۝ ٥٢٦ ۝ ٥٢٧ ۝ ٥٢٨ ۝ ٥٢٩ ۝ ٥٣٠ ۝ ٥٣١ ۝ ٥٣٢ ۝ ٥٣٣ ۝ ٥٣٤ ۝ ٥٣٥ ۝ ٥٣٦ ۝ ٥٣٧ ۝ ٥٣٨ ۝ ٥٣٩ ۝ ٥٤٠ ۝ ٥٤١ ۝ ٥٤٢ ۝ ٥٤٣ ۝ ٥٤٤ ۝ ٥٤٥ ۝ ٥٤٦ ۝ ٥٤٧ ۝ ٥٤٨ ۝ ٥٤٩ ۝ ٥٥٠ ۝ ٥٥١ ۝ ٥٥٢ ۝ ٥٥٣ ۝ ٥٥٤ ۝ ٥٥٥ ۝ ٥٥٦ ۝ ٥٥٧ ۝ ٥٥٨ ۝ ٥٥٩ ۝ ٥٦٠ ۝ ٥٦١ ۝ ٥٦٢ ۝ ٥٦٣ ۝ ٥٦٤ ۝ ٥٦٥ ۝ ٥٦٦ ۝ ٥٦٧ ۝ ٥٦٨ ۝ ٥٦٩ ۝ ٥٧٠ ۝ ٥٧١ ۝ ٥٧٢ ۝ ٥٧٣ ۝ ٥٧٤ ۝ ٥٧٥ ۝ ٥٧٦ ۝ ٥٧٧ ۝ ٥٧٨ ۝ ٥٧٩ ۝ ٥٨٠ ۝ ٥٨١ ۝ ٥٨٢ ۝ ٥٨٣ ۝ ٥٨٤ ۝ ٥٨٥ ۝ ٥٨٦ ۝ ٥٨٧ ۝ ٥٨٨ ۝ ٥٨٩ ۝ ٥٩٠ ۝ ٥٩١ ۝ ٥٩٢ ۝ ٥٩٣ ۝ ٥٩٤ ۝ ٥٩٥ ۝ ٥٩٦ ۝ ٥٩٧ ۝ ٥٩٨ ۝ ٥٩٩ ۝ ٦٠٠ ۝ ٦٠١ ۝ ٦٠٢ ۝ ٦٠٣ ۝ ٦٠٤ ۝ ٦٠٥ ۝ ٦٠٦ ۝ ٦٠٧ ۝ ٦٠٨ ۝ ٦٠٩ ۝ ٦١٠ ۝ ٦١١ ۝ ٦١٢ ۝ ٦١٣ ۝ ٦١٤ ۝ ٦١٥ ۝ ٦١٦ ۝ ٦١٧ ۝ ٦١٨ ۝ ٦١٩ ۝ ٦٢٠ ۝ ٦٢١ ۝ ٦٢٢ ۝ ٦٢٣ ۝ ٦٢٤ ۝ ٦٢٥ ۝ ٦٢٦ ۝ ٦٢٧ ۝ ٦٢٨ ۝ ٦٢٩ ۝ ٦٣٠ ۝ ٦٣١ ۝ ٦٣٢ ۝ ٦٣٣ ۝ ٦٣٤ ۝ ٦٣٥ ۝ ٦٣٦ ۝ ٦٣٧ ۝ ٦٣٨ ۝ ٦٣٩ ۝ ٦٤٠ ۝ ٦٤١ ۝ ٦٤٢ ۝ ٦٤٣ ۝ ٦٤٤ ۝ ٦٤٥ ۝ ٦٤٦ ۝ ٦٤٧ ۝ ٦٤٨ ۝ ٦٤٩ ۝ ٦٥٠ ۝ ٦٥١ ۝ ٦٥٢ ۝ ٦٥٣ ۝ ٦٥٤ ۝ ٦٥٥ ۝ ٦٥٦ ۝ ٦٥٧ ۝ ٦٥٨ ۝ ٦٥٩ ۝ ٦٦٠ ۝ ٦٦١ ۝ ٦٦٢ ۝ ٦٦٣ ۝ ٦٦٤ ۝ ٦٦٥ ۝ ٦٦٦ ۝ ٦٦٧ ۝ ٦٦٨ ۝ ٦٦٩ ۝ ٦٧٠ ۝ ٦٧١ ۝ ٦٧٢ ۝ ٦٧٣ ۝ ٦٧٤ ۝ ٦٧٥ ۝ ٦٧٦ ۝ ٦٧٧ ۝ ٦٧٨ ۝ ٦٧٩ ۝ ٦٨٠ ۝ ٦٨١ ۝ ٦٨٢ ۝ ٦٨٣ ۝ ٦٨٤ ۝ ٦٨٥ ۝ ٦٨٦ ۝ ٦٨٧ ۝ ٦٨٨ ۝ ٦٨٩ ۝ ٦٩٠ ۝ ٦٩١ ۝ ٦٩٢ ۝ ٦٩٣ ۝ ٦٩٤ ۝ ٦٩٥ ۝ ٦٩٦ ۝ ٦٩٧ ۝ ٦٩٨ ۝ ٦٩٩ ۝ ٧٠٠ ۝ ٧٠١ ۝ ٧٠٢ ۝ ٧٠٣ ۝ ٧٠٤ ۝ ٧٠٥ ۝ ٧٠٦ ۝ ٧٠٧ ۝ ٧٠٨ ۝ ٧٠٩ ۝ ٧١٠ ۝ ٧١١ ۝ ٧١٢ ۝ ٧١٣ ۝ ٧١٤ ۝ ٧١٥ ۝ ٧١٦ ۝ ٧١٧ ۝ ٧١٨ ۝ ٧١٩ ۝ ٧٢٠ ۝ ٧٢١ ۝ ٧٢٢ ۝ ٧٢٣ ۝ ٧٢٤ ۝ ٧٢٥ ۝ ٧٢٦ ۝ ٧٢٧ ۝ ٧٢٨ ۝ ٧٢٩ ۝ ٧٣٠ ۝ ٧٣١ ۝ ٧٣٢ ۝ ٧٣٣ ۝ ٧٣٤ ۝ ٧٣٥ ۝ ٧٣٦ ۝ ٧٣٧ ۝ ٧٣٨ ۝ ٧٣٩ ۝ ٧٤٠ ۝ ٧٤١ ۝ ٧٤٢ ۝ ٧٤٣ ۝ ٧٤٤ ۝ ٧٤٥ ۝ ٧٤٦ ۝ ٧٤٧ ۝ ٧٤٨ ۝ ٧٤٩ ۝ ٧٥٠ ۝ ٧٥١ ۝ ٧٥٢ ۝ ٧٥٣ ۝ ٧٥٤ ۝ ٧٥٥ ۝ ٧٥٦ ۝ ٧٥٧ ۝ ٧٥٨ ۝ ٧٥٩ ۝ ٧٦٠ ۝ ٧٦١ ۝ ٧٦٢ ۝ ٧٦٣ ۝ ٧٦٤ ۝ ٧٦٥ ۝ ٧٦٦ ۝ ٧٦٧ ۝ ٧٦٨ ۝ ٧٦٩ ۝ ٧٧٠ ۝ ٧٧١ ۝ ٧٧٢ ۝ ٧٧٣ ۝ ٧٧٤ ۝ ٧٧٥ ۝ ٧٧٦ ۝ ٧٧٧ ۝ ٧٧٨ ۝ ٧٧٩ ۝ ٧٨٠ ۝ ٧٨١ ۝ ٧٨٢ ۝ ٧٨٣ ۝ ٧٨٤ ۝ ٧٨٥ ۝ ٧٨٦ ۝ ٧٨٧ ۝ ٧٨٨ ۝ ٧٨٩ ۝ ٧٩٠ ۝ ٧٩١ ۝ ٧٩٢ ۝ ٧٩٣ ۝ ٧٩٤ ۝ ٧٩٥ ۝ ٧٩٦ ۝ ٧٩٧ ۝ ٧٩٨ ۝ ٧٩٩ ۝ ٨٠٠ ۝ ٨٠١ ۝ ٨٠٢ ۝ ٨٠٣ ۝ ٨٠٤ ۝ ٨٠٥ ۝ ٨٠٦ ۝ ٨٠٧ ۝ ٨٠٨ ۝ ٨٠٩ ۝ ٨١٠ ۝ ٨١١ ۝ ٨١٢ ۝ ٨١٣ ۝ ٨١٤ ۝ ٨١٥ ۝ ٨١٦ ۝ ٨١٧ ۝ ٨١٨ ۝ ٨١٩ ۝ ٨٢٠ ۝ ٨٢١ ۝ ٨٢٢ ۝ ٨٢٣ ۝ ٨٢٤ ۝ ٨٢٥ ۝ ٨٢٦ ۝ ٨٢٧ ۝ ٨٢٨ ۝ ٨٢٩ ۝ ٨٣٠ ۝ ٨٣١ ۝ ٨٣٢ ۝ ٨٣٣ ۝ ٨٣٤ ۝ ٨٣٥ ۝ ٨٣٦ ۝ ٨٣٧ ۝ ٨٣٨ ۝ ٨٣٩ ۝ ٨٤٠ ۝ ٨٤١ ۝ ٨٤٢ ۝ ٨٤٣ ۝ ٨٤٤ ۝ ٨٤٥ ۝ ٨٤٦ ۝ ٨٤٧ ۝ ٨٤٨ ۝ ٨٤٩ ۝ ٨٥٠ ۝ ٨٥١ ۝ ٨٥٢ ۝ ٨٥٣ ۝ ٨٥٤ ۝ ٨٥٥ ۝ ٨٥٦ ۝ ٨٥٧ ۝ ٨٥٨ ۝ ٨٥٩ ۝ ٨٦٠ ۝ ٨٦١ ۝ ٨٦٢ ۝ ٨٦٣ ۝ ٨٦٤ ۝ ٨٦٥ ۝ ٨٦٦ ۝ ٨٦٧ ۝ ٨٦٨ ۝ ٨٦٩ ۝ ٨٧٠ ۝ ٨٧١ ۝ ٨٧٢ ۝ ٨٧٣ ۝ ٨٧٤ ۝ ٨٧٥ ۝ ٨٧٦ ۝ ٨٧٧ ۝ ٨٧٨ ۝ ٨٧٩ ۝ ٨٨٠ ۝ ٨٨١ ۝ ٨٨٢ ۝ ٨٨٣ ۝ ٨٨٤ ۝ ٨٨٥ ۝ ٨٨٦ ۝ ٨٨٧ ۝ ٨٨٨ ۝ ٨٨٩ ۝ ٨٩٠ ۝ ٨٩١ ۝ ٨٩٢ ۝ ٨٩٣ ۝ ٨٩٤ ۝ ٨٩٥ ۝ ٨٩٦ ۝ ٨٩٧ ۝ ٨٩٨ ۝ ٨٩٩ ۝ ٩٠٠ ۝ ٩٠١ ۝ ٩٠٢ ۝ ٩٠٣ ۝ ٩٠٤ ۝ ٩٠٥ ۝ ٩٠٦ ۝ ٩٠٧ ۝ ٩٠٨ ۝ ٩٠٩ ۝ ٩١٠ ۝ ٩١١ ۝ ٩١٢ ۝ ٩١٣ ۝ ٩١٤ ۝ ٩١٥ ۝ ٩١٦ ۝ ٩١٧ ۝ ٩١٨ ۝ ٩١٩ ۝ ٩٢٠ ۝ ٩٢١ ۝ ٩٢٢ ۝ ٩٢٣ ۝ ٩٢٤ ۝ ٩٢٥ ۝ ٩٢٦ ۝ ٩٢٧ ۝ ٩٢٨ ۝ ٩٢٩ ۝ ٩٣٠ ۝ ٩٣١ ۝ ٩٣٢ ۝ ٩٣٣ ۝ ٩٣٤ ۝ ٩٣٥ ۝ ٩٣٦ ۝ ٩٣٧ ۝ ٩٣٨ ۝ ٩٣٩ ۝ ٩٤٠ ۝ ٩٤١ ۝ ٩٤٢ ۝ ٩٤٣ ۝ ٩٤٤ ۝ ٩٤٥ ۝ ٩٤٦ ۝ ٩٤٧ ۝ ٩٤٨ ۝ ٩٤٩ ۝ ٩٥٠ ۝ ٩٥١ ۝ ٩٥٢ ۝ ٩٥٣ ۝ ٩٥٤ ۝ ٩٥٥ ۝ ٩٥٦ ۝ ٩٥٧ ۝ ٩٥٨ ۝ ٩٥٩ ۝ ٩٦٠ ۝ ٩٦١ ۝ ٩٦٢ ۝ ٩٦٣ ۝ ٩٦٤ ۝ ٩٦٥ ۝ ٩٦٦ ۝ ٩٦٧ ۝ ٩٦٨ ۝ ٩٦٩ ۝ ٩٧٠ ۝ ٩٧١ ۝ ٩٧٢ ۝ ٩٧٣ ۝ ٩٧٤ ۝ ٩٧٥ ۝ ٩٧٦ ۝ ٩٧٧ ۝ ٩٧٨ ۝ ٩٧٩ ۝ ٩٨٠ ۝ ٩٨١ ۝ ٩٨٢ ۝ ٩٨٣ ۝ ٩٨٤ ۝ ٩٨٥ ۝ ٩٨٦ ۝ ٩٨٧ ۝ ٩٨٨ ۝ ٩٨٩ ۝ ٩٩٠ ۝ ٩٩١ ۝ ٩٩٢ ۝ ٩٩٣ ۝ ٩٩٤ ۝ ٩٩٥ ۝ ٩٩٦ ۝ ٩٩٧ ۝ ٩٩٨ ۝ ٩٩٩ ۝ ١٠٠٠ ۝ ١٠٠١ ۝ ١٠٠٢ ۝ ١٠٠٣ ۝ ١٠٠٤ ۝ ١٠٠٥ ۝ ١٠٠٦ ۝ ١٠٠٧ ۝ ١٠٠٨ ۝ ١٠٠٩ ۝ ١٠١٠ ۝ ١٠١١ ۝ ١٠١٢ ۝ ١٠١٣ ۝ ١٠١٤ ۝ ١٠١٥ ۝ ١٠١٦ ۝ ١٠١٧ ۝ ١٠١٨ ۝ ١٠١٩ ۝ ١٠٢٠ ۝ ١٠٢١ ۝ ١٠٢٢ ۝ ١٠٢٣ ۝ ١٠٢٤ ۝ ١٠٢٥ ۝ ١٠٢٦ ۝ ١٠٢٧ ۝ ١٠٢٨ ۝ ١٠٢٩ ۝ ١٠٣٠ ۝ ١٠٣١ ۝ ١٠٣٢ ۝ ١٠٣٣ ۝ ١٠٣٤ ۝ ١٠٣٥ ۝ ١٠٣٦ ۝ ١٠٣٧ ۝ ١٠٣٨ ۝ ١٠٣٩ ۝ ١٠٤٠ ۝ ١٠٤١ ۝ ١٠٤٢ ۝ ١٠٤٣ ۝ ١٠٤٤ ۝ ١٠٤٥ ۝ ١٠٤٦ ۝ ١٠٤٧ ۝ ١٠٤٨ ۝ ١٠٤٩ ۝ ١٠٥٠ ۝ ١٠٥١ ۝ ١٠٥٢ ۝ ١٠٥٣ ۝ ١٠٥٤ ۝ ١٠٥٥ ۝ ١٠٥٦ ۝ ١٠٥٧ ۝ ١٠٥٨ ۝ ١٠٥٩ ۝ ١٠٦٠ ۝ ١٠٦١ ۝ ١٠٦٢ ۝ ١٠٦٣ ۝ ١٠٦٤ ۝ ١٠٦٥ ۝ ١٠٦٦ ۝ ١٠٦٧ ۝ ١٠٦٨ ۝ ١٠٦٩ ۝ ١٠٧٠ ۝ ١٠٧١ ۝ ١٠٧٢ ۝ ١٠٧٣ ۝ ١٠٧٤ ۝ ١٠٧٥ ۝ ١٠٧٦ ۝ ١٠٧٧ ۝ ١٠٧٨ ۝ ١٠٧٩ ۝ ١٠٨٠ ۝ ١٠٨١ ۝ ١٠٨٢ ۝ ١٠٨٣ ۝ ١٠٨٤ ۝ ١٠٨٥ ۝ ١٠٨٦ ۝ ١٠٨٧ ۝ ١٠٨٨ ۝ ١٠٨٩ ۝ ١٠٩٠ ۝ ١٠٩١ ۝ ١٠٩٢ ۝ ١٠٩٣

تجادلك في زوجها :

في قصة نزل بسببها قول الله تعالى : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ ﴾ .

حيث ظاهر الصحابي من زوجته ، أى قال لها : (أنت على كظهر أمي) ، وكان ذلك في الجاهلية طلاقاً ؛ فعده النبي ﷺ طلاقاً كذلك ، لأنه لم يترل فيه وحى ؛ فجادلته المرأة في زوجها من أجل أولادها منه ، قالت : « إن تركتهم له ضاعوا ، وإن ضممتهم إلى جاعوا » ، حتى نزل الوحي بكفارة الظهار وعادت الحياة ..

والشاهد أن المرأة جعلت الزوج موضعاً للجدال من أجل استمرار الحياة ، واستقرار أولادها ..

المؤمن يألف ويؤلف :

ورد في الحديث الصحيح الشريف : (خياركم أحاسنكم أخلاقاً ، الموطؤون أكنافاً) ، وفي رواية البخارى : (الذين يألفون ويؤلفون) ..

والتأليف بين القلوب من لطف الله — عز وجل — ، قال تعالى : ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ .

وقد قال الله سبحانه : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِظَ الْقَلْبُ لَأَنفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ

وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ .

فقد هيا الله — عز وجل — رسوله ﷺ حتى يجتمع الناس حوله ، ويألفوه ؛ فهو لين الجانب رفيق رقيق رحيم ، عزيز عليه ما عنتنا حريص علينا ، بالمؤمنين رءوف رحيم

قال عز من قائل : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ .

والمرء يؤلف إذا عز عليه عنت الذين يألفونه من حيث المبدأ ، ومن حيث الأصل ، فأنت إذا علمت أن شخصاً ما يعز عليه عنتك ، وتعز عليه مشقتك ، وتؤثر فيه معاناتك ألفتة بلا شك ، وأحببته ..

بخلاف الشخص الذى لا فرق عنده بين ما يشق عليك وما لا يشق ، فضلاً عن كون ما يشق عليك أحب إليه مما لا يشق ؛ فهو يسعد إن وجدك في مشقة ، ويسعد إن وجدك في عذاب ، فكيف تألف مثله ، وكيف تدعى حبه !

ومن حيث الواقع الذى يشهد بذلك ، أى أن الذى يعز عليه عنتك ومشقتك ، وتؤثر فيه معاناتك لا يكلفك بما لا تطيق ..

وإن كانت لك حاجة ، وفي يديه قضاؤها قضاها لك ، وإن كانت عند غيره سعى من أجلك ، كى يشفع لك ، قال الله تعالى : ﴿ مَنْ يَشْفَعْ شَفَعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِمَّا ﴾ .

وقال عليه الصلاة والسلام : (اشفعوا تؤجروا) .

وقد قال شعيب لموسى عليهما السلام : ﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنِكَحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حِجَجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ .

وهذا من معنى الصلاح الذي لم يقف عنده كثير من الناس ، حيث بالغوا في التوقف عند معناه من إقامة الشعائر ، والهيئات الظاهرة من الثياب وغيرها ..

اعزم علينا جميعاً :

في مجلس الفاروق ، شم ريح ، فقال ﷺ : عزمتم على من خرج منه هذا الريح أن يتوضأ ؛ فقال جرير بن عبد الله البجلي : ناشدتك الله يا أمير المؤمنين أن تعزم علينا أجمعين ، فاستحسنه عمر ﷺ وعزم على الجميع ، فقاموا وتوضؤوا ..

ما الذي يضر أن يعيد الجميع وضوءه دون أن يخرج رجل ، ويعلم الناس أنه صاحب الريح ..

تلك من عبقرية السلوك ، والتي غرسها النبي ﷺ في أصحابه وأمتة ، حيث قال ، والرجل صاحب القصة فيهم : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله

ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه » ..

والرجل صاحب القصة كان يحب امرأة في مكة ، فلما سمع الرجل أنها هاجرت إلى المدينة هاجر وراءها ، ودخل المسجد ، فقال النبي ﷺ : هذا الحديث ، دون أن يتوجه إليه بالقول ..

الرأى قبل الشجاعة :

للمتنبي أبيات ، تمثل أهم جوانب عبقرية السلوك ، يقول فيها :

الرأى قبل شجاعة الشجعان هو أول وهى الخلل الثانى

فإذا هما اجتمعاً لنفس مرة بلغت من العلياء كل مكان

ولربما قهر الفتى أقرانه بالرأى لا بتطاول الأقران

أى أن الرأى قبل الشجاعة ، وهو مرتبة متقدمة على مرتبة الشجاعة ، وما أحسن اجتماع الرأى والشجاعة ..

وقد يقهر الفتى أنداده بالرأى ، لا بتطاول القرون والنطاح ..

وقد صرنا نرى أمماً من الناس يهجمون لا يتكلمون ، فهذا أب أو أخ تشكو إليه ابنته أو أخته سوء معاملة زوجها ، وقد تكون مبالغة في ذلك كسائر النساء ، فأول ما يقول : أشرب من دمه ، أضربه ، أفعل به كذا وكذا ..

ولو كان ذا سلوك حميد فضلاً عن كونه عبقرى السلوك لسألها عن سبب تلك المعاملة السيئة ، وقد يتبين له أنها سبب ذلك ..

ومن ثم اشترط الفقهاء في الذى يتولى أمر المسلمين أن يكون ذا رأى ، لأنه إذا كان ذا رأى ساس الناس إلى ما فيه صلاحهم ، وخيرهم ، بخلاف ما لو فقد هذا العقل ، والرأى ، فساسهم إلى ما فيه شرهم ، واختلق الحروب التى تترافق ثرواتهم ، وتقضى على شبابهم ، ولا تبشر بخير في مستقبلهم ..

ولن يكون ذا رأى إلا إذا استشار أهل الرأى ، والمستشار مؤتمن كما قال النبي ﷺ ، ومن الأمانة أن يقروه على رأيه إن كان رأيه صواباً ، وأن يخالفوه إن كان رأيه على غير الصواب ..

وقد قال الله — عز وجل — لرسوله ﷺ : ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ ، وقال في عباده المؤمنين : ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ .

وبالرأى تنصلح أحوال الناس ، لا بالذراع ، كما هو شائع بين الناس ، لا سيما الشباب ، الذين يثورون ويهيجون ، ويستعملون الأذرع لا العقول ..

ومن الآراء الفاسدة أن يرى المرء القطع والقطيعة لأدنى ملابسة ، دون أن يعمل رأيه في الوصل والتواصل ، والعلاج ..

ومن الآراء الفاسدة أن نرمى الجهاز المعطل دون أن نصلحه ، وبوسعنا أن نصلحه ، وهكذا ..

سلوك المغتاط :

يدعو الإسلام الذى هو دين العبقرية في كل شيء إلى ضبط النفس عند الغيظ ، قال تعالى : ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (١٣٣) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَبِيرِ وَالْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ .

فمن كظم غيظه ، فكتمه ملك ناصية أمره ، ومن ملك ناصية أمره فقد حكم زمام نفسه ، وأبصر يمينه من شماله ، وعدوه من حبيبه ..

وأهم ما في هذه المسألة أن يملك زمام لسانه ، فهو لا ينطق بالفحش نتيجة هذا الغيظ ، لأن المغتاط في حالة غضب ، والغاضب نائر الدم ، فواره ، لا ضبط للسان فيه ، ولا جنان ، فيمكن أن يفعل أى شيء ، وأن يقول أى شيء ، وأن يسلك أى سلوك ، ولن يسلك سلوك الهادئين الموقرين ، لكنه يسلك سلوك الطائشين ، فيفعل المنكرات ، ثم يندم ساعة لا ينفع الندم ..

لا تغضب :

قال النبي ﷺ له حين استنصحه : (لا تغضب) ، فلما قال : (زدني) ، قال له : (لا تغضب) ، فلما قال : (زدني) ، قال له : (لا تغضب) ..

ثلاث مرات ، وكان ﷺ إذا أراد أن يؤكد شيئاً كرره ثلاث مرات ، فهذا منتهى التوكيد ، والتوكيد هنا مهم جداً ، لما للغضب من آثار سيئة على الغاضب ، وعلى من حوله من الناس ، فقد تنتفخ أوداجه ، فيؤدى ذلك إلى حبس نفسه وموته ..

وقد يذبح نفسه بسكين ونحوه ، وقد يرمى بها في عين الهلاك ، وهو تحت تأثير الغضب ، وقد يقتل أعز الناس لديه وهو تحت وطأة الغضب ، أى قد يصل إلى لحظة العمى ..

ومن ثم شرع الإسلام قاعدة تقول : « لا يقضى القاضى بين اثنين وهو غضبان » ، لأن قضاءه حكم ، وهو مظنة العدل ، والعدل لا يتأتى عن غضب ..

ولما في الغضب من مآسٍ وسوء بين النبي ﷺ فيما بين من تطور المعاني أن الشديدي بحق هو من يملك نفسه عند الغضب ، فقال عليه الصلاة والسلام : « ليس الشديدي بالصرعة ، وإنما الشديدي من يملك نفسه عند الغضب » ..

والصرعة : الفتى الشديدي المفتول العضلات الذى يصرع الناس .

لا ينكر أحد أنه شديد ، لكن الشديد بحق من ملك نفسه عند الغضب ، وهذا يدل على أن موافقة النفس الأمانة بالسوء بالعمى والطيش من الضعف بمكان ، وأن مقاومتها عند الغضب من القوة بمكان ..

وهذا ترغيب عظيم في عبقرية السلوك ، سلوك الغاضب إذا غضب ، يملك نفسه فلا يكون أمره فرطاً ، ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا ﴾ .

فمن ضعف عند غضبه ، وإن بدا في ثورته العنيفة أسداً جسوراً ، ووحشاً كاسراً كان ممن اتبع هواه وكان أمره فرطاً ..

الاحتياال المشروع من عبقرية السلوك :

جاء محمد المريمى إلى مصر مادحاً خمارويه بن أحمد بن طولون ؛ فطال وقوفه ببابه ، ولم يفلح في الدخول عليه ؛ فقصد كنيز المغنى ورجاه أن يشفع له عنده ، وأن يكلمه فيه ، بأنه شاعر جاء مادحاً ، من أجل أن يعود بشيء من عطاياه على العادة التى كان عليها الأمراء مع الشعراء المادحين ؛ فقال كنيز لأبى محمد المريمى : لم تجر العادة بأن أكلمه فى أحد ، ولكن إن قدرت أن تعمل شعراً أغنى به فى حضرته ، فإن سألنى عن قائله عرفته من حالك ما يكون فيه عائدة صلاح عليك ، فنظمه شعراً أوله :

هم علمونى البكا لا ذقت فقدهم يا ليتهم علمونى كيف أبتمم

فصاغ كنيز له لحنا ، وغنى به ، وقال له : من سعادتك أنه لحن مطرب .

وقد كان ، وأعجب به الأمير ، وسأل عنه ، ولكن بعد أن جاءه كتاب أمه العجوز ، وشكت له سوء حالها ، فقال في ذلك شعراً ، لم يحفظ غيره حين دخل على خمارويه ، حيث نسي القصيدة الأم التي جاء مادحاً بها الأمير ، وطلب منه السماح ، فقال له : هات ما حضر ، فقال :

كتبت تسأل الإياب وتوصيني بتجميله أشد وصية
واشتكت علة لفقدى وقالت صر إلينا ولو بغير هدية
قد لبسنا ثوب التصبر من بعدك حتى لم تبق منه بقية
أتشاغلت أم ملكك بمصر بضعة غضة الشباب طرية
فجعلت الجواب مهلاً فإني عن قليل آتيك بالأمنية
بألوف تروق عينك صفر من خمارويه ومن أحمديّة
فرق له الأمير وأعطاه ثلاثة آلاف دينار ، وجارية بحليها وخادم لها ، وثلاثة آلاف درهم نفقة الطريق ..

والشاهد في عبقرية كنيز المغنى ، الذى قال له : لم تجر العادة أن أكلمه في أحسن ولكن إن قدرت أن تكتب شعراً أغنى به بين يديه ، فإن سألتني عن قائله ذكرته بما فيه مصلحتك ، أى أقول له : إنه شاعر

مجيد ، وقد جاء مادحاً لك ، وهو ببابك ، يرجو نوالك وعطفتك ، ونحو ذلك ، وقد كان ..

كثيرون هم الذين يقولون : لا ، هذه عادتنا ، ولا نستطيع أن نخالفها ، ونحو ذلك ، وبوسعهم أن يحتالوا بحيلة مشروعة ، لا يخالفون بها عاداتهم ، ولا يتجاوزون بها حدود المألوف من شرعهم وطباعهم .. وقد تفنن الناس في الشر ، فألبسوا الرشوة ثوب الهدية كما ذكر ابن عبد البر في التمهيد ، أفلا يتفنون في وجوه الخير كما تفننوا في الشر ..

وقد قال النبي ﷺ لمن جاءوه يسألونه سبائهم فأعطاهم نصيبه منها ، وقال لهم : « اتنوني في صلاة الظهر وقولوا : إنا نستشفع برسول الله ﷺ فيرق لكم أصحابي » ، وقد كان ، فلما قالوا : ذلك دفع الناس ما عندهم ..

وقال على بن أبي طالب عليه السلام لرجلين أبى رسول الله ﷺ أن يقابلهما لما كان منهما من سوء في مكة ، قال لهما : « اتنياه من قبل وجهه ، فإنه لا يرد أحداً جاءه من قبل وجهه ، وقولا له ما قاله إخوة يوسف : ﴿ تَاللّٰهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللّٰهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخٰطِئِينَ ﴾ ، فلما فعلا ، وقالوا ، أجاهما ﷺ بما أجاب به يوسف عليه السلام إخوته فقال : ﴿ لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللّٰهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ » .

ما قال على ﷺ : وماذا أفعل؟ وهل لى كلمة عليه ، إنه رسول الله ﷺ ..

وإنما فكر فى أمر مشروع ، وهو يعلم أن النبو عليه الصلاة والسلام خلقه القرآن ، وقد كان ، أما رأيت أنهما حين قالاه ما قاله إخوة يوسف له رد عليهما بما رد به يوسف على إخوته : ﴿ لَا تَتَّخِذْ عَلَيْكُمْ يَوْمَ الْيَوْمِ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ .

وفى الغيرة :

تزوج الزبير بن العوام ﷺ عاتكة بنت زيد بعد أن مات عنها عمر ابن الخطاب ﷺ ، ووفت عدتها منه ، وكان الزبير رجلاً شديد الغيرة ؛ فقال لها : يا عاتكة ، صلى فى البيت لا فى المسجد ..

فقلت : يا ابن العوام ، أتريد أن أدع لغيرتك مصلى صليت فيه مع رسول الله ﷺ وأبى بكر وعمر ..

فتراجع الزبير ، وقال : فإنى لا أمنعك ..

ودبر حيلة لطيفة تجعلها تمتنع من الخروج إلى المسجد وهى راضية ..

فلما سمع النداء لصلاة الصبح ، توضأ وخرج ، فقام لها فى سقيفة بنى ساعدة ، حتى إذا مرت ضرب بيدها على جسدها ، وكانت بدينة ، فقلت وهى لا تعرفه : (ما لك ، قطع الله يدك) ..

ورجعت كاسفة خائفة ، فلما رجع الزبير من المسجد قال وهو يتكلف الجذ ويظهر التعجب : يا عاتكة ، ما لى لا أراك فى مصلاك ؟

فقلت فى صوت خاشع : يرحمك الله يا أبا عبد الله ، فسد الناس بعدك ، الصلاة اليوم فى القيطون (المخدع) أفضل منها فى البيت ، وفى البيت أفضل منها فى الحجرة النبوية ..

ولا شك أن صلاة المرأة فى المسجد ليست واجبة ، فقد كان ذا حيلة لطيفة ، أرضت نفسه ، ولم يخالف بها شرع ربه ..

عبقرية التأويل :

من قواعد العربية أن ما لا يحتاج إلى تأويل أولى مما يحتاج إلى تأويل ، وذلك لأن الذى لا يحتاج إلى تأويل قريب ، والقريب مقدم على البعيد ، وهو أسلم للمتلقى من حدوث لبس ، أو شبهه ، ومن ثم قال السادة العلماء : (ما لا يحتاج إلى تأويل أولى مما يحتاج) ..

وأقصد بعبقرية التأويل تأويل الحسن لا سوء فى السلوك ، وأن يلتمس الإنسان لأخيه عذراً ..

وقد نقل عن الإمام الشافعى عليه رحمة الله أنه قال : « لو كان للكلمة ألف معنى للشر ، ومعنى واحد للخير لرجحت معنى الخير على معانى الشر » ..

وفي زماننا يكون للكلمة ألف معنى من الخير ومعنى واحد للشر ، ويسارع كثير من الناس في الحمل على هذا المعنى الواحد من الشر دون الحمل على أى معنى من معاني الخير ، وهذا دليل على الرغبة في النكد ، وحب صناعته ، وحب نشره ، والتعلق بمقتضاه من السوء والخصام ..

وقد قال عزيز مصر ، وهو من أفرس الناس لامرأته : ﴿ أَكْرِمِي مَثْوَا عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ ، وقد قال حين راودته امرأة العزيز عن نفسه : ﴿ مَعَادَ اللَّهِ ، إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ ..

وقد قال الناس من قديم ، وقاله ﷺ في حديث شريف : « إن البلاء موكل بالمنطق » ، أى من قال : ربى يا امرأة هذا الغلام حتى يكبر ، ويعتدى عليك ، سوف يكون له ذلك .

ومن قال : لن أنجو من مرضى هذا فلن ينجو ..

والدليل على ذلك ما رواه البخارى في صحيحه من أن رسول الله ﷺ زار أعرابياً مريضاً ، فقال له على المعهود منه في زيارة المرضى : طهور إن شاء الله ، فقال الأعرابي : طهور ! بل هى حمى تفور على رجل كبير تزيره القبور ، فقال عليه الصلاة والسلام : فنعم إذا ، فمات لغده ..

ومعروف أن النبى ﷺ أرحم الناس ، وأرفق الناس ، وما كان ليقول للرجل ذلك إلا لأنه ارتكب عظيماً ، ورد خيراً ، وقد مات كما قال .

وروى أن أبا عبيد الجرهمى وكان من المعمرين سئل عن أعجب ما رآه في عمره الطويل ، فقال : كنت أسير في الصحراء ، ورأيت جنازة ، فمشيت فيها ، ووجدت نفسى أبكى ، وأنا لا أعرف الميت ، فلما وضعوه في الحفرة ، تمثلت قول الشاعر :

يبكى عليه غريب ليس يعرفه وذو قرابته في الحى مسرور

فدنا منى رجل من قبيلته ، وقال لى : أتعرف من قائل هذا الشعر ؟ قلت : لا .

قال : إنه ذلك الميت الذى يوضع في حفرة الآن ، وأنت الغريب الذى يبكى عليه ولا يعرفه ، وابن عمه وريثه الوحيد ، لم يأت لدفنه ، وهو سعيد فى الحى بموته ، فقال أبو عبيد : سبحان الله ! إن البلاء موكل بالمنطق ..

وإذا كان البلاء موكلاً بالمنطق وجب على من أراد أن يكون عبقرى السلوك أن يكون منطقته خيراً حتى يأتيه الخير ..

وغنى عن البيان أن منطق الخير وحده لا يكفى لتحقيق الخير ، وإنما يجب أن يكون معه عمل يصحبه ، فإذا اجتمع العمل مع المنطق وفق الله — عز وجل — العامل القائل إلى الخير ، وهداه إليه ، وقد قال ربنا تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴾ .

وقد قال أصحاب الجنة الذين أقسموا ليصرمنها مصبحين ولا يستثنون ، فطاف عليها طائف من ربنا وهم نائمون فأصبحت كالصريم : ﴿ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴾ ، فأبدلهم الله خيراً منها ..

وما أكثر منطق السوء فى حياتنا الذى لا تتسع له المجلدات من شؤم التعبير ، وفساد التأويل ، فأنت ترى الرجل يبنى بيتاً جديداً ، وتسمعه يقول : يا عالم ، من يسكنه !

ومن رزقه الله ولدًا يقول : يا عالم هل سأعيش حتى أراه شاباً خريج جامعة ، ويا عالم ، هل سيعيش ! وهكذا ..

وأذكر فى هذا السياق أن الله تعالى رزقنى التوجه إلى الشيخ مهدي أحد أعلام معهد منوف الدينى كى أعرض عليه ما أكتبه من شعر ، وكان رجلاً ليناً مع علمه ، لطيفاً مع دفته ، فأحسن الاستماع إلىّ وهو يبتسم ، ثم علق فقال : معانيك جميلة ، وأسلوبك ممتاز ، ولغتك تشيع فيها الحيوية ، ولكن انكسر منك البيت الثالث والسابع ، وغدا إن شاء الله فى المرحلة الثانوية تدرس علمى العروض والقوافى ، فلا ينكسر شعرك وقد أثر ذلك فى ، حتى استقام وزن شعري وما زلت أكتب إلى اليوم ..

وكان بمعهدنا علم جليل ، وعلامة فاضل هو الشيخ عبد العزيز فريج ، حلفت ذات مرة أنى لو ذهبت إليه ولم أذهب إلى الشيخ مهدي لما كتبت شعراً أبداً ؛ لأن الرجل كان حاداً إذا وجد خطأ ، ولو لحظ انكسار بيت لأخذ الورقة من يدي ، وقطعها ، وقال :

اغرب عن وجهى يا كذا يا ابن كذا ؛ فحمدت الله تعالى أن ساقنى إلى الشيخ مهدي ، وكلا أجل وأحترم ..

أذكر ذلك لأنى وجماعة من زملائى اشتركنا فى مسابقة أزهرية عامة على مستوى الدولة فى الصحافة المدرسية ، وأعددنا مجلة بذلنا فيها كل جهد ، واشترينا أدواتها ، وكان لى شرف أن سميتها (الشموع المضيئة) ، وقام بكتابتها أستاذ الخط فى معهدنا ، وكان خطه آية فى الروعة والجمال ..

ولم يبقَ إلا أن يعتمدوها الشيخ فريج ، فدخلنا عليه ونحن نزعم أنه سوف يشرنا بحصولنا إن شاء الله على المركز الأول لما بذلناه من جهد فى كتابة الطريف ، ولما عليه مجلتنا من إخراج عظيم ، وخط شريف ، وبمجرد أن فتحناها أمامه هب واقفاً ، وكأن عقرب قد لسعته ، ورمى بها فى وجوهنا ، وقال : (المضيئة) ناقصة سنة يا بهائم ..

كثرت أسنان كلمة (المضيئة) أمام مدرس الخط فكتب سنين ، ونسى الثالثة ، فالضاد ، والياء ، والهمزة هكذا (المضيئة) بثلاث سنون ، لكنه كتبها (المضئة) باثنتين ، ولجمال خطه وروعته لم يلحظ أحدنا هذا النقص ، فأعدناها ، وتكلفنا شراء لوحة جديدة ، وانتظرنا حتى فرغ الأستاذ من كتابتها ، وعرضناها على فضيلته من جديد ، والرعب يملكنا جميعاً من أن يكتشف شيئاً آخر داخل المقالات ، ولكن الله سلّم ..

كان على حق رحمه الله ولكنه مزق المجلة ، ولو كان وجهها بهدوء
لأمكن علاج ذلك دون خسارة ..

فإن كان قد فعل هذا من أجل سنّة ناقصة فماذا كان يفعل من
أجل انكسار بيت ، وانحرافه عن نظام الخليل بن أحمد الفراهيدى عليه
رحمة الله ..

وقد كان رسول الله ﷺ يحب الفأل الحسن ، ويعجبه الاسم الحسن ..

وفى صلح الحديبية أرسلت قريش أكثر من واحد للتفاوض معه ﷺ
وكان آخرهم سهيل بن عمرو ، فلما سأل ﷺ عن القادم ، وعلم أنه
سهيل قال للصديق ﷺ : (سهل علينا الأمر يا أبا بكر) ، وقد كان
وتم الصلح ..

وقد أراد عمر بن الخطاب ﷺ أن يقطع ثنيتيه ؛ لأنه كان يهجو
رسول الله ﷺ ، فقال عليه الصلاة والسلام : (دعه يا عمر ، فقد
يقوم مقامًا لا تدمه) ..

وتركه عمر ، ومما مر من الأيام ، وأسلم ﷺ ، فلما كانت ردة
الناس بعد انتقال رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى خطب سهيل فى
قريش ؛ فقال : (كنتم آخر من أسلم ، فلا تكونوا أول من كفر ،
وثبت الله به الناس) ..

ونحن فى حاجة إلى التأويل الذى يبعث الأمل فى الحياة لا اليأس ..

وجدت رجلاً يقبلها ..

وذكر ابن الجوزى فى كتابه الأذكياء أن شابًا كان من جلساء أحد
الأمراء ، وسمع الأمير يذكر فتاة كان يحبها هذا الشاب ، وأنه - أى
الأمير - عزم على أن يتزوجها ، فقال :

— يرحم الله أمير المؤمنين ، هى لا تصلح لك ..

— قال : لماذا ؟

— قال : لأنى وجدت رجلاً يقبلها ..

فانصرف عنها الأمير ، وتزوجها الشاب ، وعلم الأمير بأنه
تزوجها ، فقال له :

— ألم تقل لى إنك وجدت رجلاً يقبلها ؟

— قال : بلى ..

— قال : وكيف ترضى بها زوجة ؟

— قال الشاب : لأن هذا الرجل الذى وجدته يقبلها أبوها ..

فابتسم الأمير ، وبارك له ، وأهداه ، وهذا من عقريه السلوك ، فما
كذب الشاب ، وما صرف عنها الأمير بطريقة يريه بها أنه أولى بها منه ،
وإنما تلتطف ، وما أشد حاجة الناس إلى أن يعود لهم هذا التلطف فى
السلوك ، بحيث لا يخرجون أحدًا ، ولا يخالفون شرعًا ..

عبقرية السلوك مع المبغضين :

تأملت عبقرية العلوم ، كيف وصلت إلى حد التعجب والاندھاش ، هل يتصور أن تكون تلك الفلاشة الصغيرة حاملة مجلدات تنن بها البعير !

وهل يتصور أن تجرى عملية داخل جسم الإنسان بواسطة أشعة دون تدخل جراحي !

ورأيت أن عبقرية العلوم التي تبهر الناس ، وهى بلا شك مثيرة للدهشة ، ويكاد من لم يطلع عليها يجن إذا رآها كما كاد أهلونا من الفلاحين يجنون حين سمعوا عن ظهور التليفزيون ، ما صدقوا أنهم سوف يرون صورة المتحدث وهم ما زالوا فى دهشة عجيبة من ذلك الحديد الذى تكلم (الراديو) وإذا بهم اليوم يندهشون أكثر حين سمعوا أن الأمر قد تطور ، وأن تلك الحديدة صارت صوتًا وصورة معًا ..

رأيت أن عبقرية السلوك كذلك مدهشة ، بل إن الاطمئنان إليها أشد وطأة على الصدور والقلوب من الاطمئنان إلى تلك العبقرية العلمية ..

وكما تتحول عبقرية العلوم المدهشة للعقول إلى عادة لا يستغربها أو يستغرب لها أى طفل ، ذلك العقل الصغير الذى يستخدمها بمهارة فائقة ، تفوق الكبير ، فهو ذو مهارة عالية فى استعمال الكمبيوتر خبير بطرقه وبرامجه منذ نعومة أظفاره ..

تتحول كذلك العبقرية الإنسانية إلى عادة ، إذا عاشها الناس كما يعيشون تلك العبقرية العلمية ، ولن تتمكن تلك العادة من الصغار إلا إذا رأوها ديدنًا للكبار ..

يدلك على ذلك ما كان عليه الأطفال من حب للنبي ﷺ ، فمنهم من قال للنبي ﷺ : (مرني بشيء ، فإنى لا أعصى لك أمرًا) ، فداعبه ﷺ بقوله : (اقتل أباك) ..

فاستل سيفًا ، وذهب لينفذ أمر رسول الله ﷺ ، فقال له : (على رسلك ، فإنى لم أبعث بقطيعة) ..

ولا شك أن الأطفال ما بلغوا من تلك العبقرية إلا لأهم عاشوها فى الكبار ، فهم يرون آباءهم وأمهاتهم على هذا الحب الكبير ، فأبو هذا الطفل يقول تلك الكلمة فى سره وعلايته ، يجب ألا يعصى لرسول الله ﷺ أمرًا ، وأمه كذلك ، وذلك لأن حب رسول الله ﷺ من شرط الإيمان ، لقوله ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وولده ووالده والناس أجمعين » ..

وكما قال الأول :

وينشأ ناشئ الفتيان منا على ما كان عوده أبوه
فإن هؤلاء ولدوا فى بيئة حب حقيقى ، ليس فحواه مجرد كلام ، وإنما هو مقال قبل أن يكون كلامًا ..

وما عرفت هذه الأجيال الحب كلامًا ، وإنما عرفته مقتضى ،
نظروا فرأوه ، وفتحوا أنوفهم فشموه ، ومدوا أيديهم فلمسوه ، فهو
مرآهم ، وحسهم ، وحواسهم ، ومعنى يدخل في كل لحظة إلى قلوبهم ،
ويستقر فيها ، فلا جرم أنهم على دربه يسرون ، ويقتبسون منه زادًا
يملاً كيأنهم ، وصدورهم ، وتلك عبقرية المعاني التي توغلت في حياة
الصغير والكبير على سواء ..

وكما تسمع بالقصة من قصص الحب العذرى فتعجب ، وإن
وجدت في عينيك بعض الدمع ذرفت ، ثم تضرب كفًا بكف ، وتقول
في النهاية : معقولة ؟!

إنك ما قلت معقولة إلا بحسب النظر إلى واقعك الذي خلا من
مثلها ، وما خلا من مثلها فجأة ، وإنما خلا بالتدريج ، شيئًا فشيئًا ،
حتى وصل الأمر إلى ما وصل إليه من انتزاع معنى الحب معنى ،
وتمكين ألفاظه ، بحيث صار مجرد كلمات ، وأشعار ، ودق على طبول
الغريزة باسمه ، وهو غير موجود ..

ومن تلك العبقرية المدهشة التي لا تقل أثرًا في دهشتها من وجود
الكهرباء ، وما ترتب عليها من أجهزة وتقنيات عبقرية الإسلام في
معاملة المبغضين بالعدل ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ
قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۖ أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ ﴾ .

وفي آية النساء يقول الله تعالى : ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ
فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا
كَثِيرًا ۚ ﴾ .

فتأمل قول الله — عز وجل — : ﴿ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَنْ
تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ۚ ﴾ .

أقول : ليس من العبقرية أن تعامل من تحب بإحسان وكرم ،
وحسن عشرة ، وإنما العبقرية الحقيقية أن تعامل من تكره بحسن عشرة
وأن تحسن إليه وهو يسيء إليك ، وأن تعطيه وهو يمنحك ، وأن
تتجاوز عنه ، وهو الذي لا يعرف كيف يتجاوز في شيء من الأشياء
التي قد تحدثها وهي لا تطاق ولا تحمل ..

إن العبقرية الحقيقية في هذا الذي سماه النبي ﷺ : مكارم الأخلاق ؛
أن تعطى من منك ، وأن تصل من قطعك ، وأن تعطى من منك ..
وقد روى البخاري في صحيحه قول النبي ﷺ : « ليس الواصل
بالمكافئ ، وإنما الواصل من إذا قطعت رحمه وصلها » ..

أى كما جاء في الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه ، حيث جاء
رجل إلى النبي ﷺ وقال له : إن أهله يسيئون إليه وهو يحسن إليهم ،
ويصلهم وهم يقطعونه ، ويعطيهم وهم يمنعونه ..

فقال له ﷺ : « ما زال معك من الله ظهير ما دمت على ذلك » ..

أى أنه ﷺ لم يأمره بأن يعاملهم كما يعاملونه ، بأن يقطعهم ، ويسىء إليهم ، ويمنعهم ، وإنما شجعه على وصالهم برغم قطيعتهم له ، وعلى عطائه إياهم برغم حرمانهم إياه ..

وتلك هى عبقرية السلوك مع الذين لا يحسنون ، وفى حديث شريف يقول فيه ﷺ : « لا يكن أحدكم إمعة يقول : إن أحسن الناس أحسنت ، وإن أساءوا أسأت ، ولكن وطنوا أنفسكم على أنه إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا ألا تظلموا » ..

وتلك عبقرية السلوك ، أن تواجه من أساء بالإحسان ، وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٦٠﴾ وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٦١﴾ .

وكما نعلم أن الطريق إلى العبقرية ليس مفروشاً بالورود والرياحين ، وإنما هو مفروش بالأشواك والمنغصات ، وما زال العبقري يعمل العمل المتواصل بلا فواصل ، وجميع الدنيا بما فيها هوامش إلى جنب متن ، هو شغله وانشغاله ، وهمه الأكبر ، ذلك المتن هو غايته التى يود أن يصل إليها ، ولن يهدأ له بال حتى يقول كما قال أرشميدس : وجدتها ، عندئذ يمكن أن يغمض له جفن ، وأن يرتاح منه جنب على فراش ، وأن يقر له نوم ، ولو ساعة ، وهو فى عمق النوم القليل زمانه يفكر ؛ فهو يقظان نائم ، فإذا جاءت فكرة جديدة هب من نومه سعيداً ، ليكتبها قبل أن تفرّ :

فالعلم صيد والكتابة قيده قيد صيودك بالحبال الوثاقة

وهو ساعة يكتبها يفكر فى الطريقة ، والوقت ، كيف ومتى تستحيل الفكرة واقعاً يعيشه الناس ، ويسعدون به ، وفى سبيل ذلك يهون جهد كبير ، ويبدل وقت كثير ويضيع عمره ، وقد يحقق العبقري فكرته ، وقد يتركها لمجاهد آخر كبير — وإن كان شاباً — ليكمل رحلته ، كما أكمل جلال الدين السيوطى تفسير القرآن الكريم الذى بدأه جلال الدين المحلى ، والمعروف الآن بتفسير الجلالين .

وعبقرية السلوك تحتاج إلى امتداد تعايش لا إكمال جهد ، كالذى أكمله السيوطى ، وذلك فى الأعم الأغلب ..

إنما الأمر فى عبقرية السلوك مرده ومرجعه إلى الوصية ، قال تعالى فى سورة البقرة : ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَبْنَىٰ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ ﴿٢١٣﴾ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ .

فالمرء يوصى أولاده بالالتزام بخلقه ، والخلق عبقرية ثابتة لا تحتاج إلى من يكملها كما تحتاج تفسير المحلى إلى من يكمله ..

فالكرم مثلاً من عبقرية السلوك ، وهو يتحقق بالموجود ، أى بلا تكلف ، وكم من والد كريم ، ورث أبناءه صفة الكرم ، فهم

يصلون ما كان أبوهم يصله ، ويعطون من كان أبوهم يعطيه ،
ويقيمون موائد الطعام في رمضان ، وفي غير رمضان كما كان أبوهم
يفعل ذلك ، ويمكن أن يزيدوا ، لكنهم لا ينشئون خلقاً جديداً ، ومن
ثم قال الشاعر :

شابه عدى أباه في الكرم ومن يشابه أباه فما ظلم

وكم من والد كريم ، وصى بنيه بالكرم ، ثم صاروا من بعده أبخل
الناس ، والدليل على ذلك ما كان من أصحاب الجنة ، الذين ضرب
الله تعالى بهم المثل في القرآن الكريم ، فقد كان أبوهم رجلاً كريماً ينفق
منها على المساكين ، فلما مات أقسموا على مخالفة منهج أبيهم ،
ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴾
وَلَا يَسْتَنْتُونَ ﴿ ، وكان من حديثهم الذي كان بمثابة الحادى لهم :
﴿ فَأَنْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ ﴾ ١٧ أن لَا يَدْخُلْنَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ
مَسْكِينٌ .

وكان من نتيجة هذا الإصرار على الحرمان أن طاف عليها طائف
من ربنا وهم نائمون فأصبحت كالصرير ، أى كقطع الليل المظلم ،
احترقت ، فما صار فيها من حبة عنب فضلاً عن عنقود ..

وقد أقرؤا بذنبهم ، وقالوا : ﴿ عَسَىٰ رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا
إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴾ .

قال العلماء : « إن الله تعالى قد أبدلهم جنة خيراً منها ، وذلك
لأنهم تابوا ورجعوا ، وندموا ، وقالوا : إنا إلى ربنا راغبون » ..

وقد نجح أعداء هذا الدين في انتزاع هذه الأخلاق من المجتمع شيئاً
فشيئاً ، حتى يضيعوا أغلى ما عندنا من قيم ، فإذا ضاعت تلك القيم
تفرغ الدين من محتواه ، وليس في مجال العبقرية ، أى عبقرية شىء
اسمه في المجال العلمى (جهاز بدون محتوى) ، وكذلك ليس من
العبقرية في السلوك أن يكون لدينا دين مفرغ من محتواه ..

ويفرغ الدين من محتواه بأن تجرد مصليين وحاجين ومعتمرين ،
وصائمين بلا أخلاق ، وتخاف الواحد منهم أن يعاملك ، ولا تأمن
بوائقه إن حاورته أو حاورك ، إنه يهيج في وجهك ، ويثور فيك ،
ويكاد يقضى عليك برغم أن جبينه يلمع بلمعة تسمى علامة الصلاة ،
وبرغم أن المسواك في جيبه ، أو في يده ، وبرغم أن المصحف أمامه
لا يفارقه ، ولكن ذلك كله لم يؤثر فيه إذ عامل الناس ..

ولطالما قلت ، وسوف أظل أقول : إن معظم الشكوى التى تأتينا من
الذين يصلون في جماعة ، ويحفظون القرآن ، ويصومون النوافل كلها ،
ويحجون مرات ، ويعتصرون في كل مناسبة ، وبدون مناسبة ، ومعنى
ذلك أن الواحد منهم يقيم الدين شعائر جسدية دون روح ..

وروح العبادة في الإسلام كالروح في أبدان الأحياء ، تبعث
فيهم الحياة ، وكذلك روح العبادة في العابد ، تبعث فيه معنى
الفضائل ، فإذا به يأتى المعروف ، ويحجب المنكر ، ويقدم على
نبيل الخصال ، ويحجم عن سيئها ، ألا ترى إلى قول الله تعالى :
﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ ،

وقوله — عز وجل — ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ .

وقوله عز من قائل : ﴿كَتَبْنَا أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا ءَايَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو ءَالِئْبِ﴾ .

ولا شك أن قارئ القرآن الكريم إذا تدبر آياته كان وقافاً عنده ، يعرض حاله عليه ، فما وافقه حمد الله تعالى عليه ، واجتهد في الاستقامة عليه ، وما خالفه اجتهد في أن يوافقه ، والقرآن الكريم كان خلق رسول الله ﷺ أى أنه قرآن يمشى على الأرض ، أو قرآن تجسد في لحم ودم ، فإن أردت أن تنظر إلى خلق رسول الله ﷺ قرأت القرآن الكريم ، تعلمت على سبيل المثال ما يأتى :

— أنه ﷺ صابر غير ضجر ؛ لأن الله تعالى يقول : ﴿وَأَصْبِرْ﴾ .

— وأنه ﷺ لا يستعجل عذاب الكافرين ، لأن الله تعالى يقول له : ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا﴾ .

— وأنه ﷺ ينفق في سبيل الله ، لأن الله تعالى يقول : ﴿لَكِنِ الرُّسُلُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ .

أى أن رسول الله ﷺ يجاهد بماله ونفسه في سبيل الله ، وكذلك الذين آمنوا معه .

— وأنه ﷺ يعرض عن الجاهلين ؛ لأن الله تعالى يقول له : ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ .

— وأنه ﷺ قد صلى وفيه روح الصلاة ، لقوله تعالى : ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ .

ومن عبقرية السلوك في ذلك السياق أننا وجدنا رسول الله ﷺ وقد أتاه أبو سفيان يسترحمه في قومه الذين آذوه وكفروا به ، وعذبوه وعذبوا أصحابه فرحمهم ..

وقد أسلم ثمامة بن أثال ، وكان ملك الحبوب في الجزيرة ، فأقسم ألا يعطى المشركين حبة ، فشكوا إلى رسول الله ﷺ ، فكتب إليه أن خل بين قومي وبين ميرتهم (طعامهم) ..

وأنت تحفظ ما سارت به الركبان من الشهرة ، حيث فتح الله — عز وجل — لرسوله ﷺ مكة ، فقال لأهلها : ما تظنون أنى فاعل بكم ؟

قالوا : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم ..

فقال لهم : اذهبوا فأنتم الطلقاء ، وعفا عنهم ..

فهل هذا إلا عن عبقرية السلوك ؟

إنك إذا تأملت هذا الموقف أدهشك كما تدهشك الآلة ذات الحجم القليل كالفلاشة التى تحمل داخلها ألوف الصفحات ..

إن قلت : كيف يحمل هذا الجرم الصغير ذلك الحمل الكبير ، فكذلك عليك أن تقول : كيف يقول : اذهبوا فأنتم الطلقاء لمن فعلوا

به ذلك من الأذى الكبير الكثير ، وأخرجوه من وطنه العزيز ، أحب بلاد الله إلى الله تعالى ، وأحب البلاد إلى نفسه ..

فالأول تعجب من عبقرية علمية ، قد يظهر في المستقبل ما هو أعجب منها ..

والثاني تعجب من عبقرية خلقية هيات أن يأتي المستقبل بما هو أعجب منها ..

وبناء عليه فإن العبقرية العلمية عرضة للتطور ، أما عبقرية الخلق ، فهي هكذا ، ولدت عبقرية ، وسوف تعيش عبقرية ، وتظل هكذا ، لا يحتاج إلا إلى معايشة فقط ، ووصية جادة بأن يكون لأهلها امتداد ، لا كما قال الشاعر :

مررت على المروءة وهى تبكى فقلت علام تنتحب الفتاة

فقلت كيف لا أبكى وأهلى جميعاً دون خلق الله ماتوا

فالمروءة هى المروءة ، يحيا أهلها ويموتون ، وهى حية تسعد بهم أحياء ، وتخزن من أجلهم موتى ، لكن الفلاشة تموت ، وتحل محلها فلاشة جديدة ، أحدث منها ، فإن بقى منها شئ بقى فى المتاحف من باب الندرة ، والنظر فيما كان ، كما ترى اليوم سيارة قديمة تنطلق بين السيارات الحديثة ، ينظر إليها الناس ، وإن أعجبهم فيها شئ أعجبهم الهيكل الذى كان صلبا بخلاف هياكل السيارات اليوم التى يقال فيها إنها ورق !

أما المروءة وغيرها من الأخلاق الكريمة فإنها لا تبلى ، وإنما تبقى غضة بضرة أبد الدهر ، فلن تكون فى المستقبل مروءة معدلة ، أو مروءة حديثة ، بحيث ينظر الناس إلى المروءة القديمة على أنها من مخلفات القرون الخالية ، وإنما المروءة هى المروءة ، إقدام ودم يجرى فى العروق بنجدة المحتاج ، وإنقاذ المشرف على الهلاك ، والتطوع فى أعمال الخير ، والبدء بالنفس قبل الغير ، وهكذا ..

وإنما القضية فى حاملها ، والمتحلى بها ، فهم الذين يموتون ، ويحيون وينتشون ، ويضمرون ويرتدونها أو يخلعون ..

أندخل كلنا ؟

تتجلى عبقرية السلوك فى مثل هذا الموقف النبيل الذى يحقق مقاصد الشرع دون تجاوز لحدود الشرع ..

فقد حدث أن نذرت ألا تكلم ابن أختها عبد الله بن الزبير رضى الله عنها وعنه ، لما بلغها قوله : لتنتهين عائشة أو لأحجرن عليها ، فنذرت ألا تكلمه أبدا ، فاستشفع من أجل أن تكلمه رجلان من المسلمين هما المسور بن مخرمة ، وعبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث ، وهما من بنى زهرة ، فذهبا إليها ومعهما ابن الزبير ، فاستأذنا ، وقالا لها : أندخل ؟ ، قالت : نعم ، قالا : كلنا ؟ قالت : كلكم ، فدخلوا ، واقتحم ابن الزبير الحجاب حيث إنها خالته ، وهما يقولان لها مذكرين : قال رسول الله ﷺ : « لا يحل لمؤمن أن يهجر أخاه فوق ثلاث » فبكت ، وكلمته ، وكفرت عن يمينها بعق أربعين رقبة ،

رواه البخارى في كتاب الأدب ، باب الهجرة وقول رسول الله ﷺ :
« لا يحل للرجل أن يهجر أخاه فوق ثلاث » ..

لقد نجح الرجلان : المسور بن مخزومة وعبد الرحمن بن الأسود في مهمتهما ، والصلح بين الناس من مقاصد هذا الدين ، دون مخالفة للشرع ، أى دون كذب ، إنها عبقرية السلوك في الخير ، وليست عبقرية السلوك في الشر ، ألا تتصور أن يحدث عكس ذلك ، بأن يذهب رجلان إلى خالة ، أو خال ، أو عم ، أو صديق ، لإيغار صدره ، ولإصراره على التمدادى في الخصومة ، بأن يزيدا على ما قال الخصم من سوء التأليف ، والبدع البغيضة ، فقد يقول أحد الساعين في السوء :

— ماذا قال ؟

— قال : لأنتهين أو لأحجرن عليها !

— هذا هين بالنسبة إلى ما قاله بعد ، وما قاله قبل ، لقد قال قبل تلك العبارة كذا ، وقال بعدها كذا وكذا ، وحلف على كذا ، وقال : إنها منافقة ، أو منافق ، وهو والله يعلم قد أضمر لك من الشر ما الله به عليم ..

ونحن إذ ندعو إلى الصلح فلا بد أن تأخذ منه حقه ، نعم نعم ، إن الصلح خير ، ولكن الحق أحق أن يتبع ، وأنت صاحب حق عليه ، بل صاحب حقوق ، يكفى أنه أهانك ، وفضح أمرك ، ولعن آباءك وأجدادك ، والعجيب يا أخى أنه أكل طعامك ، وشرب ماءك ، وما

به من خير إنما هو منك ، حقاً إنما في زمن الجحود ، والنكران ، وعدم الشكر والعرفان ..

فهل تظن بعد هذا الزرع النكد أن تنبت بواذر الرغبة في صلح ، أم ترى أن الخصومة سوف تزداد ، وأن الإصرار على القطيعة سوف يقوى ..

وقد تكون النية سليمة ، ويذهب الرجلان ومعهما الخصم ، ويقول خصمه الذى سعى إليه : إن معنا فلائاً ، أو ندخل به ؟

فإذا بالخصم يقول : والله لن تدخلنا ما دام معكما ، كما قال بنو إسرائيل لموسى عليه السلام : ﴿ إِنَّا لَنَنَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا ﴾ .

أو يقول : ادخلا أنتما ما عدا هذا ، فإذا بهذا يخرج ، ويلوى منصرفاً ، ويقسم ألا يعود ، فإن سألتهما : لم فعلتما ذلك ؟ كان الجواب : أو نكذب ؟

هكذا تعلق شناعة الغباء على المعانى الدينية كالذى يظن أنه من النفاق أن يحسن استقبال شخص لا يحبه ، ويقول لك إن نصحت له : هل تريد منى أن أكون منافقاً !

وقد روى البخارى في صحيحه أن رجلاً استأذن على النبي ﷺ فقال : (ائذنوا له ، بئس أخو العشيرة) ، فلما دخل أحسن عليه السلام استقباله على المعهود منه ، ومن عظمة خلقه ، فسئل عما ظاهره

المفارقة بين القول والسلوك ، فقال عليه الصلاة والسلام : (إن شر الناس من هجره الناس اتقاء فحشه) ..

فليس من حسن العشرة أن تقول لمن تراه سيئ العشرة : يا سيئ العشرة ، وإنما من الإسلام ، ومن حسن العشرة أن تحسن لقاءه وإن كان سيئاً ، وأن تنصح له برفق ، وأن تعلمه بإحسان ..

وقد نفى النبي ﷺ الكذب عن الذي ينمى خيراً ، ليصلح بين المتخاصمين ..

والله — عز وجل — يقول : ﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ﴾ .

فهلا تحققت فينا تلك العبقرية من أجل أن نصلح بين الناس !
ولو على أنفسكم ..

أن يقوم المرء بالعدل ، وأن يشهد بالحق على أحد من الناس شيء متصور ، وغير مستغرب ، لكن أن يقوم بالعدل على نفسه ، وأن يشهد عليها ، أو على والديه ، أو على أحد من أقاربه فذلك غير متصور إلا عند العباقره ، الذين مُنحوا عبقرية السلوك ، فأقاموا فيهم قول الله تعالى من سورة النساء : ﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلّٰهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنْفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَالِدِينَ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا

أَهْوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا ۚ وَإِنْ تَلَوَّأْتُمْ أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝

وسر هذه العبقرية يكمن في بعد النظر ، كما كانت العبقرية العلمية كذلك ، فإن العبقري الذي اكتشف الجديد الطريف لو لم يكن بعيد النظر إلى المستقبل لما وقف على أبعاد اكتشافه ، ولما وصل إلى ما وصل من اختراع يقال فيه : سابق زمانه ، هو لم يسبق زمانه حقيقة ، بدليل أنه يعيش فيه ، وإنما سبقه بالنظر إلى ما هو عليه ، وما يمكن أن يطرره من أدواته فسبق بذلك الزمان ..

كقول أصحاب الرقائق : إن جماعة من الروم دخلوا على جماعة من صحابة رسول الله ﷺ فوجدوا بيوتهم خالية من الفراش الوثير ، فسألوهم :

— أصحاب رسول الله ﷺ وليس في بيوتكم متاع ؟
فأجابوهم بقولهم :

— رسول الله ﷺ أخبرنا بأن الدار الحق هي الدار الآخرة ، فأرسلنا أمتعتنا إلى هناك ، يقصدون بذلك قوله تعالى : ﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ۖ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ۖ وَنَمَازٌ مَّصْفُوفَةٌ ۖ وَزَرَائِبُ مَبْنُوتَةٌ ۖ

ولا شك أن الإسلام دعوة إلى حسن الدنيا وحسن الآخرة ، بدليل قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝

لكن الشاهد في يقين الناس أن الجنة فيها سرر مرفوعة وأكواب موضوعة .. إلى آخر ما ذكره ربنا — عز وجل — ، فكأنهم من الآن يعيشون فيها ..

وقد قال الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام : (لو كشفت لي الحجب ما ازددت إيماناً) ..

أى لو رأى الطيبات ما ازداد إيمانه ؛ لأنه يراها بالفعل بقلبه ..

ومن رأى النار بقلبه كان كمن رآها بعينه ، ومن ثم يقيم العدل وشهادة الحق على نفسه ، وعلى والديه ، وعلى أقاربه ، لأنه إن فعل ذلك فقد اتقى النار التي وقودها الناس والحجارة ، قال الله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوًا أَنفُسُكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ .

ولن يقى الإنسان نفسه وأهله تلك النار إلا إذا أقام العدل عليها وعليهم ..

ألا ترى أن الرجل جاء بين يدي رسول الله ﷺ وأقر بارتكابه الفاحشة حتى يقيم عليه ﷺ الحد ويطهره ، وأنه ﷺ حين قال : (أدوا الخائط والمخيط) وبين في الغلول أن من أخذ شاة ليست له جاءته يوم القيامة شاة من نار ، وأن من أخذ بعيرا أو ناقة جاءه بعير من نار ، وبقرة من نار يوم القيامة ، فقال رجل : أنا أخذت من الغنيمة شيئاً أردت أن أجعله برذعة لحمارى (أى قشاً) ، فقال له

عليه الصلاة والسلام : أما نصيبى منه فهو لك ، فقال : لا حاجة لى فيه ورده ، إيماناً بأنه سوف يأتيه من نار ، وهو لا يتحمل تلك النار ، أى أن من كان على يقين ارتدع ، وأقام على نفسه الشهادة ، وأقامها على والديه والأقربين إيماناً منه بأن أحداً لن ينفعه : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴾ وَصَحْبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴾ لِكُلِّ أَمْرٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ .

وقد بين ربنا تعالى في آية للنساء السابقة أن اتباع الهوى هو سبب العزوف عن إقامة العدل وشهادة الحق على النفس والوالدين والأقربين ، فقال : ﴿ فَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا ﴾ .

وترك الهوى عبقرية سلوك بلا شك ؛ لأن له لذة ، أى لذة ، وكون الإنسان يترك هذه اللذة إلى شىء ظاهره المعاناة دليل عبقرية منه ؛ لأنه نظر إلى آثار اتباعه هواه ، وهو ضلاله وسوء مصيره ..

وأقول : إلى شىء ظاهره المعاناة ؛ لأن اتباع الهدى فيه ذلك ، يتصور الإنسان أن فيه معاناة ، والحق أنه لا معاناة فيه إلا على قدر ضئيل في البداية ، ثم بعد ذلك يألفه ، ويصير له عادة ، فإذا ألفه وصار له عادة وجد له لذيذ لذة ، وعظيم صحة ، فتذوقه ، ولم يعدل به غيره ..

كتارك الصلاة الذى إن هداه الله فصلى ، وداوم على صلاته صارت بالنسبة إليه راحة ، واستشعر لذتها ، فاستحالت من كبيرة عليه إلى هينة ، اقرأ في ذلك قول الله تعالى من سورة البقرة :

﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ .

فقوله سبحانه : ﴿وَأِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ استثناء مفاده أن الخاشعين لا يعدون تلك العظة كبيرة ، والسبب أنهم كما قال تعالى : ﴿يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ .

ويظنون هنا بمعنى يعتقدون ، فمن اعتقد أنه ملاق ربه ، وأنه إليه راجع ، وأنه محاسبه ولا تخفى عليه خافية ، ولا يضيع أجر المحسنين ، وأن أول ما يسأل عنه يوم الدين الصلاة ، صلى ، ومع دوامه على الصلاة تصبح له راحة لا عناء ، وسعادة لا شقاء ..

فانظر إلى حال اثنين ، أحدهما مهمل تارك للصلاة ، ولغيرها من الفضائل ، والثاني مؤد لها دائم عليها ، تجد أن الأول مستعذب ما هو فيه ، وكبير عليه أن يخالفه ، مع أن في مخالفته إياه خيراً له ، وتجد الثاني مستعذباً ما هو فيه وكبير عليه أن يخالفه ، وهو إن خالفه هلك ، بخلاف الأول ، والفرق كما قلت في اليقين ..

فما أيسر تلك العبقرية لمن أراد ، كما أيسر العبقرية العلمية على أصحابها الذين قد تظن أنهم يفعلون ما لا يطاق ، وأنهم وأنهم ، أى يجرمون أنفسهم جمال الحياة الدنيا وزينتها ، وأنهم شهداء ، وأنهم ... وأنهم ..

وإذا تركناهم يتحدثون عن أنفسهم بعيداً عن مؤثرات الإعلام ، ونزغات المذيعين وجدنا لوناً مختلفاً عما هو معروف من الكلام المعتاد ،

أى وجدناهم يقولون : نحن في جنة ، أى في معاملهم الضيقة ، فنحن نراها ضيقة ، لكنهم يرونها أوسع جنة في الدنيا ، ويقولون نحن في نعيم ، وذلك كما يشعر المصلون الراكعون الساجدون القائمون ، الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿أَمَّنْ هُوَ قَلْبُ نِسَاءِ آدَمَ الْيَوْمَ سَاجِدًا وَقَائِمًا تَحَذِّرُوا الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ .

وقد رأينا معاذ بن جبل رضي الله عنه ، وقد مات بالطاعون يبكي عند موته ، لا جزعاً من الموت ، ولا تعبيراً عن ألم مرض خطير ، وإنما يبكي لأنه مدرك أنه ميت ، ومفارق الصيام في الصيف ، ومجالس العلماء ، كأن أجهل ما في الدنيا عنده هو هذا الذى قد يرى فيه الناس عذاباً ومعاناة ..

وقد قال الإمام على بن أبى طالب رضي الله عنه : « أحب من الدنيا ثلاثة : إكرام الضيف ، والصيام في الصيف ، وضرب أعداء الله بالسيف » .. وفى سياق الكرم وجدنا التاريخ يذكر لضرب المثل في الكرم حاتم الطائي ، ومن يتأمل سيرة حاتم الطائي يقول : إن به هوساً أو جنوناً ، حيث كان يوقد ناراً كل ليلة ، ليأتى على ضوئها المسافرين ليأكلوا ويبيتوا ويأمنوا ، إنه بلا شك يجد ذلك عملاً يسيراً ، بينما يراه غيره ضرباً من المشقة عظيماً ..

وقد سئل حاتم الطائي : هل مررت بأكرم منك ؟ فقال : نعم ، مررت بغلام يتيم يعيش مع أمه ، وليس له من طعام الدنيا إلا مائة شاة ، فذبح لى شاة ، وحتى ينطبخ لحمها شوى مخها وأتاني به سريعاً ، فلما

ذقته قلت : ما ألد هذا المخ ، فما لبث أن جاءني بغيره وغيره ، حتى ذبح المائة ، فلما عرفت فعله وعدت إلى ديار قومي أرسلت إليه بمائة ناقة عوضاً عما فعل ، حيث ذبح جميع ثروته من أجل أن فيها شيئاً أعجبنى ، ووزع لحومها بين أهالي حيه ..

إن الكريم بلا شك يرى في الكرم لذة بينما يخرج البخيل الشيء اليسير وهو يشعر أنه يخرج جزءاً من نفسه التي بين جنبيه ، أو كأنه كما قال العلماء ذلك البخيل الذي يؤدي زكاة ماله ، وكأنه يخلع روحه من بدنه ، ولأنها ركن الإسلام فمن رحمة الله تعالى أنه يتقبلها منه ، أي لا يشترط رضاه ، وراحة نفسه ..

وقد كان النبي ﷺ ينهى من يجمع الصدقات من المسلمين أن يأخذ النفيسة من المواشي زكاة (كرائم أموالهم) حتى لا تتبعها نفوسهم ، فإن رضوا بذلك أخذها .